قطف الياسمين

في تدبر آيات من الكتاب العظيم

الجزء الأول

د. محمد عبدالمعطي محمد

الألوكة
www.alukah.net

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد الخلق محمد وعلى آله وصحبه وسلم، وبعد..

فإن أصدق الكلام كلام الله العلى الحميد، ولقد نأت بنا الغفلة عن معايشة كتاب الله تعالى وآياته معايشة تدبر، مع ما ران على القلوب من غشاوة الجهل ونبذ العلم والعلماء الربانيين الذي يعلمون كتاب الله تعالى ويفسرونه، فانساق الكثيرون وراء تأويلاتٍ باطلةٍ وتفسيراتٍ ضالة لكتاب الله تعالى، وما ذلك إلا نتيجة بُعد الشُّقَّة بيننا وبين تراث أئمتنا الربانيين في فهم وتدبر آيات الله حتى صار المصحف عند كثير من المسلمين زينةً يتبركون بوضعها على المكاتب وفي السيارات وفي البيوت يعلوها التراب، وأمثلهم طريقةً مَن يذكرونه من العام للعام في رمضان ليتباهوا بعدد ختماته مع جهلهم الكبير بمعانيه.

الخلاصة خفت نور تدبر كتاب الله تعالى في زماننا..

وكنت في بحوثي وقراءاتي أقف على تفسير آياتٍ من كتب العلماء واستجود منها نقولاً أثبتها في بحوثي، ثم تضطرني ضرورة الإيجاز والتركيز إلى حذف المستطرد منها، وقد استخرت الله تعالى في جمع ما تأملته منها في كتابٍ لطيف لعله يكون عونا لي ولإخوتي المسلمين في العودة إلى كتاب الله تعالى تدبراً وعملاً وتذوقاً..

وجعلت ذلك في سلسلة لطيفة أبعث بها لشيوخي وأساتذتي العلماء في (شبكة الألوكة) المباركة ليراجعوها وينشروها فينتفع بها أهل الإسلام، ومحبي كتاب الله تعالى.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وأسأل الله تعالى العفو عن الزلل، وأسأل إخوتي إعانتي على تقويم نفسي بالنصيحة، والدعاء بظهر الغيب لأخيكم؛ فما قصدتُ إلا الخير.

والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

كتبه الفقير إلى ربه

أبو عمر د/ محمد عبد المعطي محمد.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

"بسم اللّه الرحمن الرحيم"

وردت عبارة " بسم الله " في القرآن العظيم ثلاث مرات.. أولها في افتتاح أم الكتاب.. في أول ما يقابلك من نور القرآن، وثانيها في سورة هود عند ركوب سفينة النجاة، قالها نوح عليه السلام ومن معه من المؤمنين" وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (٤١)".. وثالثها في سورة النمل عندما افتتح سليمان رسالته إلى بلقيس وملئها يدعوهم إلى عبادة الله وحده وإسلام الوجه إليه سبحانه.. " إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣٠) أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣١)"...

والمتأمل لهذه المواضع يجد رابطا قدسيا يجمع بينها.. فحين يكون البدء (بِسْمِ اللَّهِ)، والنجاة (بِسْمِ اللَّهِ)، والدعوة إلى الله (بِسْمِ اللَّهِ).. تتحد حينها وجهة الإنسان- بعامةٍ والمسلم خاصةً- على الأرض.. وتتضح معالم طريقه، إنه ابتداءا وانتهاءا يحمل (جواز المرور) عبر الحياة(بِسْمِ اللَّهِ)، حاملا اسم الله معه يفتح أمامه مغاليق الأمور، وتنفعل الأشياء (بِسْمِ اللَّهِ) لتخدم كلها السائر (بسم الله)على الأرض..

والباء فى «بسم الله» حرف التضمين أي بالله ظهرت الحادثات، وبه وجدت المخلوقات، فما من حادث مخلوق، وحاصل منسوق، من عين وأثر وغبر، ومن حجر ومدر، ونجم وشجر، ورسم وطلل، وحكم وعلل- إلا بالحق وجوده، والحق ملكه، ومن الحق بدؤه، وإلى الحق عوده، فبه وجد من وحّد، وبه جحد من جحد، وبه عرف من (بجلاله وجماله) اعترف، وبه تخلّف (عن الفلاح) مَن (للإثم) اقترف.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

فمعنى الله: الذي له الإلهية، والإلهية استحقاق نعوت الجلال. فمعنى بسم الله: باسم من تفرّد بالقوة والقدرة (واستحق وحده العبادة والاستعانة والحب والرجاء والخوف والتقرب... سبحانه).

و«بسم الله الرحمن الرحيم» باسمه استنارت القلوب واستقلّت، وباسمه زالت الكروب واضمحلت، وبرحمته عرفت الأرواح وارتاحت، (وبأسرار أسمائه) انخنست العقول فطاحت. ويقال باسم الله نال كلّ مؤمّل مأموله، وبرحمة الله وجد كل واجد وصوله [1].

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الله – تعالى ذكره وتقدَّست أسماؤه – أدّب نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم بتعليمه تقديمَ ذكر أسمائه الحسنى أمام جميع أفعاله، وأمره بوَصفه بها قبل جميع مُهمَّاته ، وجعل ما أدّبه به من ذلك وعلَّمه إياه، منه لجميع خلقه سُنَّةً يستَنُّون بها، فيه افتتاح أوائل منطقهم (كلامهم)، وصدور رسائلهم وكتبهم وحاجاتهم.[2]..

فالبسملة إذن أدب رباني من الله سبحانه الذي بدأ كل شيئ باسمه وبكلمته " إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون".. وهذه هى اللبنة الأولى في البناء الإعتقادى للمسلم حتى يصير مؤمنا حق الإيمان.. إن كل حياة المسلم يجب أن تقوم على تقديم اسم الله فوق كل اسم، و تقديم رضاه فوق كل رضا.. ومن هنا تكون الحياة باسم الله على هدى من الله في طريق رضا الله سبحانه.. الحياة والعمل باسم الله هو التزام الإخلاص له، و التوكل عليه، وصدق الإلتجاء إليه، واليقين في عنده، و كذلك الإلتزام المطلق بعلامات صراطه المستقيم الذي بينه في كتابه،

---

[1] من تفسير القشيرى لطائف الإشارات بتصرف ما بين القوسين من كلامي.

٢ قاله الطبرى – رحمه الله– في جامع البيان.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وعلى لسان رسوله.. وهى بعينها قول الله سبحانه "قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣الأنعام)" وهى حقيقة االإسلام.. وإلا فادعاء الحياة والعمل باسمه دعوى كاذبة.. وبهذا يتبين حقيقة قول من قال من العلماء أن رسالات السماء جمعتها الكتب السماوية، واجتمعت مقاصد تلك الكتب في القرآن، واجتمع مقصد القرآن في الفاتحة، واجتمعت الفاتحة في البسملة.. وما ذلك إلا لأن البسملة هى الكلية الكبرى في هذا الدين.. أن تحيا باسم الله سبحانه.. حتى تتصاغر لديك كل همةٍ، وترى التضحيات في سبيله هينةً..وترى كل معنى جنب هذا المعنى صغير.. بعكس من يحيا بغير اسمه سبحانه وعلى غير هداه، يكبر في وجدانه كل شيء ويصغر هو وهمته حتى يستذله الشيطان أو يستعبده هواه.. رَوَى النَّسَائِيُّ عَنْ أَبِي الْمَلِيحِ عَنْ رِدْفِ رَسُولِ الله صلى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ:" إِذَا عَثَرَتْ بِكَ الدَّابَّةُ فَلَا تَقُلْ تَعِسَ الشَّيْطَانُ، فَإِنَّهُ يَتَعَاظَمُ حَتَّى يَصِيرَ مِثْلَ الْبَيْتِ، وَيَقُولُ بقوته صنعته، وَلَكِنْ قُلْ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ فَإِنَّهُ يتصاغر حتى يصير مِثْلَ الذُّبَابِ" [٣].. هكذا يتصاغر كل شيء أمام اسم سبحانه.. فهل فعلاً حياتنا تسير بسم الله الرحمن الرحيم.. الذي إن استقمت على خطا اسمه، والتزمت بلوازم السير باسمه سبحانه؛ نالك من الرحمة بكل شمولها خاصة وعامة، ظاهرة وباطنة ما لم ينله غيرك.. ولعل هذا هو سر سر ذكر اسمى الله (الرحمن والرحيم) في البسملة..

قال الشيخ رشيد رضا رحمه الله تعالى:(و مِثْلُ هَذَا التَّعْبِيرِ مَأْلُوفٌ عِنْدَ جَمِيعِ الْأُمَمِ، وَمِنْهُمُ الْعَرَبُ، وَهُوَ أَنَّ الْوَاحِدَ مِنْهُمْ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَفْعَلَ أَمْرًا مَا لِأَجْلِ أَمِيرٍ أَوْ عَظِيمٍ بِحَيْثُ يَكُونُ مُتَجَرِّدًا مِنْ نِسْبَتِهِ إِلَيْهِ وَمُنْسَلِخًا عَنْهُ، يَقُولُ: أَعْمَلُهُ بِاسْمِ فُلَانٍ، وَيَذْكُرُ

٣(صحيح – صحيح الجامع٧٤٠١)

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

اسْمَ ذَلِكَ الْأَمِيرِ أَوِ السُّلْطَانِ؛ لِأَنَّ اسْمَ الشَّيْءِ دَلِيلٌ وَعُنْوَانٌ عَلَيْهِ؛ يقولون (بسم الملك.. بسم الشعب..إلخ)... فَمَعْنَى أَبْتَدِئُ عَمَلِي (بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) أَنَّنِي أَعْمَلُهُ بِأَمْرِهِ وَلَهُ لَا لِي، وَلَا أَعْمَلُهُ بِاسْمِي مُسْتَقِلًّا بِهِ عَلَى أَنَّنِي فُلَانٌ.. وَفِيهِ وَجْهٌ آخَرُ وَهُوَ: أَنَّ الْقُدْرَةَ الَّتِي أَنْشَأْتُ بِهَا الْعَمَلَ هِيَ مِنَ اللهِ تَعَالَى، وَحَاصِلُ الْمَعْنَى أَنَّنِي أَعْمَلُ عَمَلِي مُتَبَرِّئًا مِنْ أَنْ يَكُونَ بِاسْمِي، بَلْ هُوَ بِاسْمِهِ تَعَالَى، لِأَنَّنِي اسْتَمَدُّ الْقُوَّةَ وَالْعِنَايَةَ مِنْهُ وَأَرْجُو إِحْسَانَهُ (ا.هـ. من تفسير المنار).

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

{الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم}

ما أرحم الله إذ علمنا كيف نقول حين تعجز الألفاظ عن وصف نعمه وجوده.. وما أرق وألطف افتتاح أنوار هداياته للخلق أجمعين بذكر أحقيته بالحمد التام دون سواه سبحانه..

وما أعذب التنويه أنه تعالى " رب العالمين " وليس رب فئةٍ أو فصيلٍ أو شعبٍ أو عرقٍ.. فرحمته وبِره ونعمه تعم كل الخلق أجمعين في كل وقتٍ و حين، فله الحمد والسؤدد القديم.

يقول علماؤنا أن (ال) في كلمة (الحمد) هى تعنى أن كل الحمد بكل صوره في كل وقتٍ هو (لله رب العالمين) وذلك أنه " الرحمن الرحيم ".. فكان أغلى وأرقى ما نحمد الله عليه هو رحمته التي تعم كل حيٍ وخصوصها لعباد الله المتقين. ف " الحمد لله رب العالمين....."

" الرحمن الرحيم "

هو أول ما يطالعنا من أسماء الله الحسنى في كتابه يستغرق كل معاني الرحمة فهو " الرحمن الرحيم"..

ابتدأ سبحانه هدايته ونوره ببيان رحمانيته بخلقه بكافة صورها..

ورحمته تعالى لا تخص خلقا دون خلق فهو " الرحمن " بعموم خلقه في الدنيا والآخرة، " وكان بالمؤمنين رحيما "..

قال ابن كثير ههنا: {الرحمن الرحيم} اسمان مشتقان من الرحمة على وجه المبالغة،... وقال ابن جرير: {الرحمن} لجميع الخلق، {الرحيم} بالمؤمنين، ولهذا

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

قال تعالى {الرحمن على العرش استوى} فذكر الاستواء باسمه الرحمن ليعم جميع خلقه برحمته، وقال: {وكان بالمؤمنين رحيما} فخصهم باسمه الرحيم. انتهى مختصرا.

"الرحمن " هو الذي صفة ذاته سبحانه الرحمة، و" الرحيم " هو القادر على إيصال رحمته بالخلق في كل لحظةٍ وحين.

هو "الرحمن " في الدنيا، و" الرحيم" في الآخرة..

وحين استوى سبحانه على عرشه وملكه استوى بالرحمة ولم يذكر في استوائه سواها فقال عز وجل:" الرحمن على العرش استوى " ولم يقل: القوى العزيز على العرش استوى..

فتأمل هذا المبدأ العظيم في أن ان ملكه سبحانه اقترن برحمانيته.

كيف لا وقد قالها نبيه المصطفى فيما صح عنه: " إن الله تعالى كتب كتابا فهو عنده فوق العرش { أن رحمتي سبقت او غلبت أو تغلب غضبي}".

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

{مالك يوم الدين }

هو سبحانه { مالك} يوم لا يملك نفعا ولا ضرا ولا شيئا أحدٌ سواه.

وهو تعالى { ملك} والملك: هو المتصرف بالأمر والنهي والحكم والثواب والعقاب، والملك يملك كل مالك وما مَلَك {لمن الملك اليوم لله الواحد القهار} (غافر/١٦).

وأضاف ملكه ومالكيته سبحانه ل{يوم الدين} وهو يوم يدين ويجازي الله تعالى كل فاعلٍ بفعله؛ {فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨الزلزلة)}.. {ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآبًا (٣٩) النبأ } فمن شاء اتخذ إلى الله تعالى مَرْجِعًا يلقى الله به فيرجع إِلَى اللَّه بِطَاعَتِهِ لِيَسْلَم مِنْ الْعَذَاب فِيهِ..

وقد أضيف الملك إلى يوم الدين خاصةً أى انه تعالى الملك في يوم الدين؛ مع أن الله يملك كل شيءٍ في وقت وحين.. وما ذلك إلا رسالة لهؤلاء الذين لا يخشون ربهم ولا ينظرون عواقب أفعالهم في الدنيا حيث قضى الله تعالى أنهم ربما يفلتون بأفعالهم القبيحة أو بتقربهم إلى من يملك – بإذن الله – في الدنيا.. فجاءت الرسالة بهذه الحقيقة التي لا تقبل شكاً في قلوبهم جميعاً.. إن هناك يوم يحاسب فيه الجميع، ولا ملك حينئذٍ إلا لله يتصرف بعدله في ملكه، لا واسطة ولا شفاعة – إلا من بعد إذنه ولمن يشاء – ولا رشوة ولا هروب من عدل الله تعالى.

فأولئك الذين اطمأنوا لكونه تعالى { الرحمن الرحيم } يجب أن يحذروا الله تعالى ويخشونه لأنه سبحانه { ملك يوم الدين}..وبذلك يستقيم منهاج الحياة بين الرجاء والخوف، وبين الطمع في رحمة الله سبحانه والاستعداد للقائه.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

" إياك نعبد وإياك نستعين "

(إيَّاكَ نعبُدُ): أى لك اللهم نَخشعُ ونَذِلُّ ونستكينُ، إقرارًا لك يا رَبنا بالرُّبوبية لا لغيرك.. (وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ): وإياك رَبنا نستعين على عبادتنا إيّاك وطاعتنا لك وفي أمورنا كلها – لا أحدًا سواك.

فمن مقتضى حمد اللّه الذي استوجبه سبحانه على عباده بربوبيته، ورحمته، أن يفردوه بالعبودية، وأن يخصوه بالعبادة، فلا مُتوجَّه إلا إليه، ولا لجوء إلا له، ولا مُعَوَّل إلا عليه. « إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبادٌ أَمْثالُكُمْ، فَادْعُوهُمْ، فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ » (١٩٤: الأعراف).

وفي التعبير هنا براعة في الأداء وبلاغة في الأسلوب لا تدانى..براعة الالتفات من الغيبة إلى الخطاب، وتلوينٌ للنظم من بابٍ إلى بابٍ، يجري به على نهج البلاغة في تنويع الكلام، وسلوك مسلَكِ البراعة حسبما يقتضي المقام.. وذلك أن التنقلَ من أسلوبٍ إلى أسلوب أنفعُ وأقوى في استجلاب النفوسِ واستمالةِ القلوب..

(وقد وردت الصيغة بلفظ الجمع «نعبد ونستعين» ولم يقل «إياك أعبد وإياك أستعين» بصيغة المفرد وذلك للإعتراف بقصور العبد عن الوقوف في باب ملك الملوك فكأنه يقول: أنا يا رب العبد الحقير الذليل، لا يليق بي أن أقف هذا الموقف في مناجاتك بمفردي، بل أنضم إلى سلك المؤمنين الموحّدين فتقبل دعائي في زمرتهم فنحن جميعاً نعبدك ونستعين بك.)

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

{إهدنا الصراط المستقيم}

يقول الله تعالى معلِّماً عبادَه بلطفه ورحمته أن يسالوه كل لحظةٍ خاشعين يقولون:{ اهدنا الصراط المستقيم}.

وقوله: (اهدنا الصراط المستقيم) يعنى: أرشدنا، وثبتنا.والهداية في القرآن على معان، فتكون الهداية بمعنى الإلهام، وتكون بمعنى الإرشاد، وتكون بمعنى البيان، وتكون بمعنى الدعاء.

أما الإلهام، قال الله تعالى: {ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى} أي: ألهم. وأما الإرشاد، قوله تعالى: {واهدنا إلى سواء الصراط}. وأما البيان قوله: {وأما ثمود فهديناهم} أي: بينا لهم. وأما الدعاء، مثل قوله تعالى: {ولكل قوم هاد} أي: داع فهو بمعنى الاسترشاد هاهنا.

فإن قال قائل: أي معنى للاسترشاد، وكل مؤمنٍ مهتدٍ، فما معنى قوله {اهدنا} ؟ قلنا: هذا سؤال من يقول بتناهي الألطاف من الله تعالى. ومذهب أهل السنة أن الألطاف والهدايات من الله تعالى لا تتناهى، فيكون ذلك بمعنى طلب مزيد الهداية، ويكون بمعنى سؤال للتثبيت، اهدنا بمعنى ثبتنا، كما يقال للقائم: " قم حتى أعود إليك ". أي: أثبت قائما.

وأما {الصراط المستقيم} قال علي، وابن مسعود: هو الإسلام. وقال جابر: هو القرآن وأصله في اللغة: هو الطريق الواضح، والإسلام طريق واضح، والقرآن طريق واضح.ا.هـ[٤]

---

٤ من تفسير السمعاني (١/ ٣٨)

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

يقول العلامة ابن كثير بعد ذكر أقوال أهل الذكر في المقصود من الصراط المستقيم بأنه القرآن العظيم، و أنه الإسلام، وهو اتباع الرسول، وهو اتباع الصحب المهديين من بعده.. قال: وَكُلُّ هَذِهِ الْأَقْوَالِ صَحِيحَةٌ وَهِيَ مُتَلَازِمَةٌ فإن من اتبع الإسلام فقد اتَّبَعَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَاقْتَدَى بِاللَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ فَقَدِ اتَّبَعَ الْحَقَّ وَمَنِ اتَّبَعَ الْحَقَّ فَقَدِ اتَّبَعَ الْإِسْلَامَ وَمَنِ اتَّبَعَ الْإِسْلَامَ فَقَدِ اتَّبَعَ الْقُرْآنَ وَهُوَ كِتَابُ اللَّهِ وَحَبْلُهُ الْمَتِينُ وَصِرَاطُهُ الْمُسْتَقِيمُ، فَكُلُّهَا صَحِيحَةٌ يُصَدِّقُ بَعْضُهَا بَعْضًا، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ.

وَلِهَذَا قَالَ الْإِمَامُ أَبُو جَعْفَرِ بْنُ جَرِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ «تفسير الطبري ١/ ١٠٤»: وَالَّذِي هُوَ أَوْلَى بِتَأْوِيلِ هَذِهِ الْآيَةِ عِنْدِي أَعْنِي- اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ- أَنْ يَكُونَ مَعْنِيًّا بِهِ: وَفِّقْنَا لِلثَّبَاتِ عَلَى مَا ارْتَضَيْتَهُ وَوَفَّقْتَ لَهُ مَنْ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِ مِنْ عِبَادِكَ مِنْ قَوْلٍ وعمل ذلك هُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ لِأَنَّ مَنْ وُفِّقَ لِمَا وُفِّقَ لَهُ مَنْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ فَقَدْ وُفِّقَ لِلْإِسْلَامِ وَتَصْدِيقِ الرُّسُلِ وَالتَّمَسُّكِ بِالْكِتَابِ وَالْعَمَلِ بِمَا أَمَرَهُ اللَّهُ بِهِ وَالِانْزِجَارِ عَمَّا زَجَرَهُ عَنْهُ وَاتِّبَاعِ مِنْهَاجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمِنْهَاجِ الْخُلَفَاءِ الْأَرْبَعَةِ، وَكُلِّ عَبْدٍ صَالِحٍ وَكُلُّ ذَلِكَ من الصراط المستقيم.

وفي الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ عَنِ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا وَعَلَى جَنْبَتَيِ الصِّرَاطِ سُورَانِ فِيهِمَا أَبْوَابٌ مُفَتَّحَةٌ وَعَلَى الْأَبْوَابِ سُتُورٌ مُرْخَاةٌ وَعَلَى بَابِ الصِّرَاطِ دَاعٍ يَقُولُ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ادْخُلُوا الصِّرَاطَ جَمِيعًا وَلَا تُعَوِّجُوا، وَدَاعٍ يَدْعُو مِنْ فَوْقِ الصِّرَاطِ فَإِذَا أَرَادَ الْإِنْسَانُ أَنْ يَفْتَحَ شَيْئًا مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ قَالَ: وَيْحَكَ لَا تَفْتَحْهُ- فَإِنَّكَ إِنْ تَفْتَحْهُ تَلِجْهُ- فَالصِّرَاطُ الْإِسْلَامُ وَالسُّورَانِ حُدُودُ اللَّهِ وَالْأَبْوَابُ الْمُفَتَّحَةُ مَحَارِمُ اللَّهِ وَذَلِكَ الدَّاعِي عَلَى رَأْسِ الصِّرَاطِ كِتَابُ اللَّهِ وَالدَّاعِي مِنْ فَوْقِ الصِّرَاطِ وَاعِظُ اللَّهِ فِي

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

قَلْبِ كُلِّ مُسْلِمٍ». وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ، وهو إسناد حسن صَحِيحٌ وَاللَّهُ أَعْلَمُ. انتهى.[٥]

يقول العلامة ابن أبي العز الحنفي في كتابه الماتع شرح الطحاوية:

"{اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ} إذا هداه هذا الصراط، أعانه على طاعته وترك معصيته، فلم يصبه شر، لا في الدنيا ولا في الآخرة.

لكن الذنوب هي لوازم نفس الإنسان، وهو محتاج إلى الهدى كل لحظة، وهو إلى الهدى أحوج منه إلى الطعام والشراب، ليس كما يقوله بعض المفسرين: إنه قد هداه، فلماذا يسأل الهدى؟ وأن المراد التثبيت، أو مزيد الهداية.

بل العبد محتاجٌ إلى أن يُعلِّمه الله ما يفعله من تفاصيل أحواله، وإلى ما يتركه من تفاصيل الأمور في كل يوم، وإلى أن يلهمه أن يعمل ذلك، فإنه لا يكفي مجرّد علمه، إن لم يجعله مريداً للعمل بما يعلمه، وإلاَّ كان العلم حجة عليه، ولم يكن مهتدياً..

والعبد محتاج إلى أن يجعله الله قادراً على العمل بتلك الإرادة الصالحة..

فإن المجهول لنا من الحق أضعاف المعلوم.. وما لا نريد فعله تهاوناً وكسلاً مثل ما نريده أو أكثر منه أو دونه.. وما لا نقدر عليه مما نريده كذلك.. وما نعرف جملته ولا نهتدي لتفاصيله، فأمر يفوت الحصر.. ونحن محتاجون إلى الهداية التامّة، فمن كملت له هذه الأمور، كان سؤاله سؤال تثبيت، وهي آخر الرتب.

وبعد ذلك كله هداية أخرى، وهي الهداية إلى طريق الجنة في الآخرة..

---

٥ راجع تفسير ابن كثير ط العلمية (١/ ٥٠-٥٣)

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ولهذا كان الناس مأمورين بهذا الدعاء في كل صلاة، لفرط حاجتهم إليه، فليسوا إلى شيء أحوج منهم إلى هذا الدعاء، فيجب أن يعلم المسلم أن الله بفضل رحمته جعل هذا الدعاء من أعظم الأسباب المقتضية للخير، المانعة من الشر، فقد بيَّن القرآن أن السيئات من النفس، وإن كانت بقدر الله، وأن الحسنات كلها من الله تعالى) ا.هـ.

وَقَدْ قَالَ تَعَالَى:" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلى رَسُولِهِ وَالْكِتابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ" (النِّسَاءِ: ١٣٦). فَقَدْ أَمَرَ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْإِيمَانِ؛ وَلَيْسَ ذلك من باب تَحْصِيلُ الْحَاصِلِ لِأَنَّ الْمُرَادَ الثَّبَاتُ وَالِاسْتِمْرَارُ وَالْمُدَاوَمَةُ عَلَى الْأَعْمَالِ الْمُعِينَةِ عَلَى ذَلِكَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ. ا.هـ.[٦]

٦ تفسير ابن كثير ط العلمية (١/ ٥٣)

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

{والعصر}

لا يكفي أن يحمل المرء الحق حتى يعمل به وينافح عنه ويوصي به لكى ينجو من الخسران الذي عم مَن كان على غير ذلك، وهو ما جاء به القرآن صريحا كما قال تعالى: {وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ } (العصر: ١ – ٣).

ففي هذه السورة الصغيرة ذات الآيات الثلاث يتمثل منهج كامل للحياة البشرية كما يريدها الإسلام. وتبرز معالم التصور الإيماني بحقيقته الكبيرة الشاملة في أوضح وأدق صورة. إنها تضع الدستور الإسلامي كله في كلمات قصار. وتصف الأمة المسلمة: حقيقتها ووظيفتها. في آية واحدة هي الآية الثالثة من السورة.. وهذا هو الإعجاز الذي لا يقدر عليه إلا الله..

والحقيقة الضخمة التي تقررها هذه السورة بمجموعها هي هذه:

إنه على امتداد الزمان في جميع الأعصار، وامتداد الإنسان في جميع الأدهار، ليس هنالك إلا منهج واحد رابح، وطريق واحد ناج. هو ذلك المنهج الذي ترسم السورة حدوده، وهو هذا الطريق الذي تصف السورة معالمه. وكل ما وراء ذلك ضياع وخسار..

إنه الإيمان. والعمل الصالح. والتواصي بالحق. والتواصي بالصبر..[٧]

فبالأمرين الأولين، يكمّل الإنسان نفسه، وبالأمرين الأخيرين يكمل غيره، وبتكميل الأمور الأربعة، يكون الإنسان قد سلم من الخسار، وفاز بالربح العظيم.[٨]

---

٧ في ظلال القرآن (٦/ ٣٩٦٤)

٨ انظر تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ٩٣٤)..

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

{ اللّه نور السموات والأرض}

إن الحديث عن الإيمان بالله تعالى حديث ممتع شائك في ذات الوقت.. يأخذ بتلابيبك في ذلك العالم النوراني اللطيف الذي تهدأ فيه الروح وتركن إلى جوار العلي الكبير سبحانه؛ فتنبعث في جنباتك طاقة نورٍ خفيةٍ تضئ ظلمات الكون بنور الله تعالى الذي أمدك حين ركنت إليه وانطلقت متجهاً نحو كنفه العظيم..

يتجلى ذلك النور الهادئ الوضيء حتى يفيض، فيغمر الكون كله، ويفيض على المشاعر والجوارح، ينسكب في الحنايا والجوانح ويسبح الكون كله في فيضه الباهر، فتعانقه وترشفه العيون والبصائر.. تنزاح الحجب، وتشف القلوب، وترف الأرواح، ويتطهر كل شيء في بحر النور، ويتجرد من كثافته وثقله، فإذا هو انطلاق ورفرفة، ولقاء ومعرفة، وامتزاج وألفة، وفرح وحبور...

« اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ » (النور: ٣٥)..

«اللَّهُ نُورُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ»..

النور الذي منه قوامها ومنه نظامها.. فهو الذي يهبها وجودها، ويودعها ناموسها... ولقد أدرك حقيقة النور كاملةً شاملةً قلبُ محمد رسول الله- صلى الله عليه وسلم- ففاض بها وهو عائد من الطائف، نافضاً كفيه من الناس، عائذاً بوجه ربه يقول: «أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت به الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة». وفاض بها في رحلة الإسراء والمعراج. فلما سألته عائشة: هل رأيت ربك؟ قال. «نور. أنى أراه».

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وبعد أن جلَّى النص الحكيم هذا الأفق المترامي، عاد يقارب مداه، ويقربه إلى الإدراك البشري المحدود، في مَثَلٍ قريبٍ محسوس:

«مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكاةٍ فِيها مِصْباحٌ. الْمِصْباحُ فِي زُجاجَةٍ. الزُّجاجَةُ كَأَنَّها كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ، يَكادُ زَيْتُها يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نارٌ. نُورٌ عَلى نُورٍ»..

وهو مثل يقرِّب ويرسم النموذج المصغر الذي يتأمله الحس، حين يقصر عن تخيل الأصل.

ومن نور ملأ السماوات والأرض إلى المشكاة. وهي الكوة الصغيرة في الجدار غير النافذة، يوضع فيها المصباح، فتحصر نوره وتجمعه، فيبدو قويا متألقا: «كَمِشْكاةٍ فِيها مِصْباحٌ».. «الْمِصْباحُ فِي زُجاجَةٍ»..تقيه الريح، وتصفي نوره، فيتألق ويزداد.. «الزُّجاجَةُ كَأَنَّها كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ».. فهي بذاتها شفافة رائقة سنية منيرة.. هنا يصل بين المثل والحقيقة. بين النموذج والأصل. حين يرتقي من الزجاجة الصغيرة إلى الكوكب الكبير، كي لا ينحصر التأمل في النموذج الصغير، الذي ما جُعل إلا لتقريب الأصل الكبير.. وبعد هذه اللفتة يعود إلى النموذج. إلى المصباح:

«يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ» ونور زيت الزيتون كان أصفى نور يعرفه المخاطَبون حينها. ولكن ليس لهذا وحده كان اختيار هذا المثل. إنما هو كذلك الظلال المقدسة التي تلقيها الشجرة المباركة. ظلال الوادي المقدس في الطور، وهو أقرب منابت الزيتون لجزيرة العرب. وفي القرآن إشارة لها وظلال حولها: «وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْناءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِلْآكِلِينَ». وهي شجرة معمرة، وكل ما فيها مما ينفع الناس. زيتها وخشبها وورقها وثمرها..كما أن الإشارة إلى نور رسالات السماء

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

التي نبعت معظمها أو أكبرها من هذا الوادي المقدس وحواليه وبمثل ذلك أقسم ربنا تعالى حين قال: « والتين والزيتون، وطور سينين».

ومرة أخرى يلتفت من النموذج الصغير ليذكر بالأصل الكبير. فهذه الشجرة ليست شجرة بعينها وليست متحيزةً إلى مكانٍ أو جهة. إنما هي مثل مجرد للتقريب: «لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ».. ولعل فيه الإشارة أن دين الله وهدايته لا تحيز فيها لشرق أو لغرب، ولا يغلبه ثقافةٌ مهما بلغت فهو النور للجميع من شرق وغرب، وفي كل زمان ومكان.

وزيت تلك المشكاة ليس زيتا من هذا المشهود المحدود، إنما هو زيت آخر عجيب: «يَكادُ زَيْتُها يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نارٌ».. فهو من الشفافية بذاته، ومن الإشراق بذاته، حتى ليكاد يضيء بغير احتراق «وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نارٌ»..كذلك قلب المؤمن الحقيقي حين يشف عن فراسة لا تكاد تخطأ فتطهر فطرته لدرجة أنها ترى بنور الله فيها فإذا جاءها ما نُقل من الوحى زادها إيمانا ويقينا، فهى حينئذٍ «نُورٌ عَلى نُورٍ»..

ثم نعود مع الآيات إلى النور العميق الطليق! إنه نور الله الذي أشرقت به الظلمات في السماوات والأرض. النور الذي لا ندرك كنهه ولا مداه. إنما هي محاولة لوصل القلوب به، والتطلع إلى رؤياه: «يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشاءُ».. ممن يفتحون قلوبهم للنور والهدى والوحى وجمال الدين الرباني النقي العظيم.

فهو شائع، فائض، دائم في السموات والأرض.. لا ينقطع، ولا يحتبس، ولا يخبو، وليس حكرا لأحدٍ دون أحد من يبحث عنه يجده تجاهه. فحيثما توجه إليه القلب رآه. وحيثما تطلع إليه الحائر هداه. وحيثما اتصل به وجد الحق والخير والجمال.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

إنما المثل لله يضربه كيف يشاء على أرقى وأجمل وأحلى ما يكون: «وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثالَ لِلنَّاسِ، وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ»..

يقول سيد قطب في الظلال: ذلك النور، إنما يتجلى ويتبلور في بيوت الله التي تتصل فيها القلوب بالله، تتطلع إليه وتذكره وتخشاه، وتتجرد له وتؤثره على كل مغريات الحياة:

«فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ، يُسَبِّحُ لَهُ فِيها بِالْغُدُوِّ وَالْآصالِ رِجالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ، وَإِقامِ الصَّلاةِ، وَإِيتاءِ الزَّكاةِ. يَخافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصارُ. لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ ما عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ، وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ بِغَيْرِ حِسابٍ»..

وهناك صلة تصويرية بين مشهد المشكاة هناك ومشهد البيوت هنا، على طريقة التناسق القرآنية في عرض المشاهد ذات الشكل المتشابه أو المتقارب. وهناك صلة مثلها بين المصباح المشرق بالنور في المشكاة، والقلوب المشرقة بالنور في بيوت الله.

تلك البيوت «أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ» - وإذن الله هو أمر للنفاذ- فهي مرفوعة قائمة، وهي مطهرة رفيعة.

يتناسق مشهدها المرفوع مع النور المتألق في السماوات والأرض. وتتناسق طبيعتها الرفيعة مع طبيعة النور السني الوضيء. وتتهيأ بالرفعة والارتفاع لأن يذكر فيها اسم الله: «وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ». وتتسق معها القلوب الوضيئة الطاهرة، المسبحة الواجفة، المصلية الواهبة. قلوب الرجال الذين «لا تُلْهِيهِمْ تِجارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقامِ الصَّلاةِ وَإِيتاءِ الزَّكاةِ».. والتجارة والبيع لتحصيل الكسب والثراء. ولكنهم مع شغلهم بهما لا يغفلون عن أداء حق الله في الصلاة، وأداء حق العباد في الزكاة: «يَخافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصارُ»..

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

تتقلب فلا تثبت على شيء من الهول والكرب والاضطراب. وهم يخافون ذلك اليوم فلا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله.

وهم مع هذا الخوف يعلقون رجاءهم بثواب الله:

«لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ ما عَمِلُوا، وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ»..

ورجاؤهم لن يخيب في فضل الله: «وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ بِغَيْرِ حِسابٍ» من فضله الذي لا حدود له ولا قيود.

في مقابل ذلك النور المتجلي في السماوات والأرض، المتبلور في بيوت الله، المشرق في قلوب أهل الإيمان..

يعرض السياق مجالا آخر. مجالا مظلما لا نور فيه. مخيفا لا أمن فيه. ضائعا لا خير فيه. ذلك هو مجال الكفر الذي يعيش فيه الكفار:

«وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمالُهُمْ كَسَرابٍ بِقِيعَةٍ، يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ ماءً، حَتَّى إِذا جاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً، وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسابَهُ. وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسابِ. أَوْ كَظُلُماتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ، يَغْشاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ، مِنْ فَوْقِهِ سَحابٌ. ظُلُماتٌ بَعْضُها فَوْقَ بَعْضٍ، إِذا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَراها. وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَما لَهُ مِنْ نُورٍ»..

والتعبير يرسم لحال الكافرين ومآلهم مشهدين عجيبين، حافلين بالحركة والحياة.

في المشهد الأول يرسم أعمالهم كسراب في أرض مكشوفة مبسوطة، يلتمع التماعا كاذبا، فيتبعه صاحبه الظامئ، وهو يتوقع الري غافلا عما ينتظره هناك.. وفجأة يتحرك المشهد حركة عنيفة. فهذا السائر وراء السراب، الظامئ الذي يتوقع الشراب، الغافل عما ينتظره هناك.. يصل. فلا يجد ماء يرويه، إنما يجد المفاجأة المذهلة التي لم تخطر له ببال، المرعبة التي تقطع الأوصال، وتورث الخبال: «وَوَجَدَ

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

اللَّهَ عِنْدَهُ» ! الله الذي كفر به وجحده، وخاصمه وعاداه. وجده هنالك ينتظره! ولو وجد في هذه المفاجأة خصما له من بني البشر لروّعه، وهو ذاهل غافل على غير استعداد. فكيف وهو يجد الله القوي المنتقم الجبار؟

«فَوَفَّاهُ حِسابَهُ».. هكذا في سرعة عاجلة تتناسق مع البغتة والفجاءة، «وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسابِ».. تعقيب يتناسق مع المشهد الخاطف المرتاع! وفي المشهد الثاني تطبق الظلمة بعد الالتماع الكاذب ويتمثل الهول في ظلمات البحر اللجي. موج من فوقه موج. من فوقه سحاب. وتتراكم الظلمات بعضها فوق بعض، حتى ليخرج يده أمام بصره فلا يراها لشدة الرعب والظلام! إنه الكفر ظلمة منقطعة عن نور الله الفائض في الكون. وضلال لا يرى فيه القلب أقرب علامات الهدى.

ومخافة لا أمن فيها ولا قرار.. «وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَما لَهُ مِنْ نُورٍ».. ونور الله هدى في القلب وتفتح في البصيرة واتصال في الفطرة بنواميس الله في السماوات والأرض والتقاء بها على الله نور السماوات والأرض.

فمن لم يتصل بهذا النور فهو في ظلمة لا انكشاف لها، وفي مخافة لا أمن فيها، وفي ضلال لا رجعة منه. ونهاية العمل سراب ضائع يقود إلى الهلاك والعذاب لأنه لا عمل بغير عقيدة، ولا صلاح بغير إيمان. إن هدى الله هو الهدى. وإن نور الله هو النور.

ذلك مشهد الكفر والضلال والظلام في عالم الناس، يتبعه مشهد الإيمان والهدى والنور في الكون الفسيح.

مشهد يتمثل فيه الوجود كله، بمن فيه وما فيه، شاخصا يسبح لله: إنسه وجنه، أملاكه وأفلاكه، أحياؤه وجماده.. وإذا الوجود كله تتجاوب بالتسبيح أرجاؤه، في مشهد يرتعش له الوجدان حين يتملاه:

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

«أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ، وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ. كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِما يَفْعَلُونَ»..

إن الإنسان ليس مفردا في هذا الكون الفسيح فإن من حوله، وعن يمينه وعن شماله، ومن فوقه ومن تحته وحيثما امتد به النظر أو طاف به الخيال.. إخوان له من خلق الله، لهم طبائع شتى، وصور شتى، وأشكال شتى. ولكنهم بعد ذلك كله يلتقون في الله، ويتوجهون إليه، ويسبحون بحمده: «وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِما يَفْعَلُونَ»..

والقرآن يوجه الإنسان إلى النظر فيما حوله من صنع الله، وإلى من حوله من خلق الله في السماوات والأرض، وهم يسبحون بحمده وتقواه ويوجه بصره وقلبه خاصة إلى مشهد في كل يوم يراه، فلا يثير انتباهه ولا يحرك قلبه لطول ما يراه. ذلك مشهد الطير صافات أرجلها وهي طائرة في الفضاء تسبح بحمد الله: «كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ».. والإنسان وحده هو الذي يغفل عن تسبيح ربه وهو أجدر خلق الله بالإيمان والتسبيح والصلاة.

وإن الكون ليبدو في هذا المشهد الخاشع متجها كله إلى خالقه، مسبحا بحمده، قائما بصلاته وإنه لكذلك في فطرته، وفي طاعته لمشيئة خالقه الممثلة في نواميسه. وإن الإنسان ليدرك- حين يشف- هذا المشهد ممثلا في حسه كأنه يراه وإنه ليسمع دقات هذا الكون وإيقاعاته تسابيح لله. وإنه ليشارك كل كائن في هذا الوجود صلاته ونجواه.. كذلك كان محمد بن عبد الله- صلاة الله وسلامه عليه- إذا مشى سمع تسبيح الحصى تحت قدميه. وكذلك كان داود- عليه السلام- يرتل مزاميره فتؤوب الجبال معه والطير.

«وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ، وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ»..

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

فلا اتجاه إلا إليه، ولا ملجأ من دونه، ولا مفر من لقائه، ولا عاصم من عقابه، وإلى الله المصير. [٩]

{ لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ }

قوله تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (١٠١)} (المائدة: ١٠١)

وقوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا لا تسئلوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم } أي لا تسألوا عن أشياء لا حاجة لكم بالسؤال عنها ولا هي مما يعنيكم في أمر دينكم، فقوله: {إن تبد لكم تسؤكم} في محل جر صفة لأشياء؛ أي لا تسألوا عن أشياء متصفة بهذه الصفة من كونها إذا بدت لكم: أي ظهرت وكلفتم بها، ساءتكم، نهاهم الله عن كثرة مساءلتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فإن السؤال عما لا يعني ولا تدعو إليه حاجة قد يكون سببا لإيجابه على السائل وعلى غيره. قوله: {وإن تسئلوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم} والمعنى: لا تسألوا عن أشياء إن تسألوا عنها حين ينزل القرآن، وذلك مع وجود رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظهركم ونزول الوحي عليه تبد لكم أي تظهر لكم بما يجيب عليكم به النبي صلى الله عليه وسلم أو ينزل به الوحي فيكون ذلك سببا للتكاليف الشاقة وإيجاب ما لم يكن واجبا وتحريم ما لم يكن محرما، بخلاف السؤال عنها بعد انقطاع الوحي بموت رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه لا إيجاب ولا تحريم يتسبب عن السؤال.

---

[٩] في ظلال القرآن (٤/ ٢٥١٨-٢٥٢٠) الطبعة السابعة عشر دار الشروق بيروت القاهرة.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وقد ظن بعض أهل التفسير أن أن الشرطية الثانية فيها إباحة السؤال مع وجود رسول الله صلى الله عليه وسلم ونزول الوحي عليه، فقال: إن الشرطية الأولى أفادت عدم جواز السؤال، والثانية أفادت جوازه، فقال: إن المعنى: وإن تسألوا عن غيرها مما مست إليه الحاجة تبد لكم بجواب رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها، وجعل الضمير في عنها راجعا إلى أشياء غير الأشياء المذكورة، وجعل ذلك كقوله:{ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين} وهو آدم، ثم قال تعالى: {ثم جعلناه نطفة} أي ابن آدم. قوله: عفا الله عنها أي عما سلف من مسألتكم فلا تعودوا إلى ذلك. وقيل المعنى: إن تلك الأشياء التي سألتم عنها هي مما عفا عنه (أي تركه) ولم يوجبه عليكم، فكيف تتسببون بالسؤال لإيجاب ما هو عفو من الله غير لازم. والأول أولى، لأن الثاني يستلزم أن يكون ذلك المسؤول عنه قد شرعه الله ثم عفا عنه. ويمكن أن يقال إن العفو بمعنى الترك: أي تركها الله ولم يذكرها بشيء فلا تبحثوا عنها، وهذا معنى صحيح لا يستلزم ذلك اللازم الباطل في القول الثاني، ثم جاء سبحانه بصيغة المبالغة في كونه {غفورا حليما} ليدل بذلك على أنه لا يعاجل من عصاه بالعقوبة لكثرة مغفرته وسعة حلمه.

وجاء في محاسن التأويل: وقال ابن القيم: وكأنّ في هذا إذنا لهم في السؤال عن تفصيل المنزل ومعرفته بعد إنزاله. ففيه رفع لتوهم المنع من السؤال عن الأشياء مطلقا. ثم قال: وثمة قول ثان في قوله تعالى: وَإِنْ تَسْئَلُوا عَنْها... إلخ، وهو أنّه من باب التهديد والتحذير، أي: ما سألتم عنها في وقت نزول الوحي جاءكم بيان ما سألتم عنه بما يسوؤكم: والمعنى: لا تتعرّضوا للسؤال عمّا يسوءكم بيانه، وإن تعرضتم له في زمن الوحي أبدي لكم...

والمراد به: ما يشق عليهم ويغمّهم من التكاليف الصعبة التي لا يطيقون بها، والأسرار الخفية التي يفتضحون بظهورها، ونحو ذلك مما لا خير فيه. فكما أنّ

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

السؤال عن الأمور الواقعة مستتبع لإبدائها، كذلك السؤال عن تلك التكاليف مستتبع لإيجابها عليهم بطريق التشديد، لإساءتهم الأدب واجترائهم على المسألة والمراجعة، وتجاوزهم عمّا يليق بشأنهم من الاستسلام لأمر الله عزّ وجلّ، من غير بحث فيه ولا تعرّض لكيفيته وكمّيته. أي: لا تكثروا مساءلة رسول الله صلى الله عليه وسلم عمّا لا يعنيكم من نحو تكاليف شاقة عليكم- إن أفتاكم بها وكلّفكم إياها حسبما أوحي إليه- لم تطيقوا بها، ونحو بعض أمور مستورة تكرهون بروزها.

{عَفَا اللَّهُ عَنْها} أي: عن تلك الأشياء حين لم ينزل فيها القرآن ولم يوجبها عليكم توسعة عليكم. أو: عفا الله عن بيانها لئلّا يسوءكم بيانها. فالجملة في موضع جرّ صفة أخرى ل {أَشْياءَ}. أو المعنى: عفا الله عن مسائلكم السالفة، وتجاوز عن عقوبتكم الأخروية بمسائلكم، فلا تعودوا إلى مثلها. فالجملة حينئذ مستأنفة مبينة لأن نهيهم عنها لم يكن لمجرّد صيانتهم عن المساءة. بل لأنها في نفسها معصية مستتبعة للمؤاخذة وقد عفا عنها. وفيه من حثّهم على الجدّ في الانتهاء عنها ما لا يخفى وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ اعتراض تذييليّ مقرّر لعفوه تعالى، أي: مبالغ في مغفرة الذنوب. ولذا عفا عنكم ولم يؤاخذكم بما فرط منكم.ا.هـ. باختصار من تفسير القاسمي = محاسن التأويل (٤/ ٢٥٩-٢٦١).

قلت: فالعفو هنا على أحد معنيين: الأول: تجاوز عنها وترك بيانها وهو متجه عندي، ويؤيده المروي عَنْ أَبِي ثَعْلَبَةَ الْخُشَنِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: "إِنَّ اللَّهَ- تَعَالَى- فَرَضَ فَرَائِضَ فَلَا تُضَيِّعُوهَا، وحدَّ حُدُودًا فَلَا تَعْتَدُوهَا، وَنَهَى عَنْ أَشْيَاءَ فَلَا تَنْتَهِكُوهَا، وَسَكَتَ عَنْ أَشْيَاءَ مِنْ غَيْرِ نِسْيَانٍ لَهَا رَحْمَةً لَكُمْ فَلَا تَبْحَثُوا عَنْهَا" (١٠).

---

١٠ إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة للبوصيري(١/ ٤٢٣) قال: وَقَالَ مُسَدَّدٌ: ثَنَا حَفْصُ بْنُ غِيَاثٍ، ثَنَا دَاوُدُ بْنُ أَبِي هِنْدٍ، عَنْ مَكْحُولٍ، عَنْ أَبِي ثَعْلَبَةَ الْخُشَنِيِّ قَالَ: فذكره... ثم قال: رَوَاهُ أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ قَالَ: ثَنَا عَبْدُ

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

والثاني العفو بمعنى ترك المؤاخذة والمعاقبة؛ ولما لم يكن ذلك منهم ذنب وقع قبل النهى وبيانه؛ ثم إن الأمر غير واضح في النهى عن السؤال مطلقاً؛ ولذا فإن توجيه المعنى للمغفرة هنا مشكل عندي.

الرَّحْيمَ بْنُ سُلَيْمَانَ، عَنْ دَاوُدَ ... فذكره. قال: هَذَا إِسْنَادٌ صَحِيحٌ..قال ابن حجر في المالب العالية (١٢/ ٤١٦/ ٢٩٣٤): رِجَالُهُ ثِقَاتٌ إِلَّا أَنَّهُ مُنْقَطِعٌ. قلت: حسنه الدارقطني بشواهده وتابعه النووي وغيره وأقره الألباني متراجعا عن تضعيفه في تحقيق كتاب الإيمان لابن تيمية، وكذا حسنه عبد القادر الأرناؤوط في روضة المحدثين ٣/ ١٢٧ الكتاب مرقم آليا بترقيم الشاملة، وقال في تحقيقه جامع الأصول (٥/ ٥٩): وقد رواه الدارقطني في " سننه " صفحة (٥٠٢) في الرضاع، ولفظه عنده:" إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها، وحرم حرمات فلا تنتهكوها، وحد حدوداً فلا تعتدوها، وسكت عن أشياء من غير نسيان فلا تبحثوا عنها "، وهو من رواية مكحول عن أبي ثعلبة الخشني، وفيه انقطاع بين مكحول وأبي ثعلبة، وله شاهد عند الدارقطني صفحة ٥٥٠ من حديث أبي الدرداء، وفي سنده نهشل الخراساني، وهو متروك، وله شاهد بمعناه رواه البزار والحاكم وصححه وغيرهما من حديث أبي الدرداء مرفوعاً بلفظ " ما أحل الله في كتابه فهو حلال، وما حرم فهو حرام، وما سكت عنه فهو عفو، فاقبلوا من الله عافيته، فإن الله لم يكن لينسى شيئاً، وتلا {وما كان ربك نسياً} وقال البزار: إسناده صالح. أقول: وله شواهد أخر بمعناه يرتقي بها إلى درجة الحسن، وقد حسنه النووي في " أربعينه "، وكذلك حسنه قبله الحافظ أبو بكر السمعاني في " أماليه ".

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

{ لكلٍ جعلنا شرعة ومنهاجا}

يقول تعالى: {وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٤٨)} (المائدة: ٤٨)

ففي هذه الآية تبرز أهم قواعد المنهج السني الذي يتبع كتاب الله تعالى المهيمن على كل ما سواه من كتاب أو طريقة أو منهج؛ ثم بيان وحكم رسول الله صلى الله عليه وسلم بما أراه الله سبحانه؛ مخالفا أهواء المضلين.

كل ذلك في اختبار رباني دقيق لاتباع منهج الحق ودربه يتبيَّن به أهل الحق من أهل الباطل بغير لبس ولا تردد {لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا}.

قال في الكشاف: {وَمِنْهاجاً} أي وطريقا واضحا في الدين تجرون عليه.

وعند القرطبي: وقال أبو العباس محمد بن يزيد: الشريعة ابتداء الطريق، والمنهاج الطريق المستمر. وروي عن ابن عباس والحسن وغيرهما" شرعة ومنهاجا" سنة وسبيلا. ومعنى الآية أنه جعل التوراة لأهلها، والإنجيل لأهله، والقرآن لأهله، وهذا في الشرائع والعبادات، والأصل التوحيد لا اختلاف فيه، روي معنى ذلك عن قتادة. وقال مجاهد: الشرعة والمنهاج دين محمد عليه السلام، وقد نسخ به كل ما سواه. (١١)

---

١١ تفسير القرطبي (٦/ ٢١١)

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

{ولا تنسوا الفضل بينكم}

قوله تعالى:{وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٣٧)} (البقرة: ٢٣٧).

وقوله تعالى {وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ}، يعني من قبل أن تجامعوهن وقبل أن تخلوا بهن، {وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ}، يعني على الزوج نصف ما فرض لها من المهر. { إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ}، يعني إلا أن تترك المرأة فلا تأخذ شيئاً، {أَوْ يَعْفُوَا الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ}، يعني الزوج يكمل لها جميع الصداق. {وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوى}، يقول: أن تعفو بعضكم بعضاً كان أقرب إلى البر، فأيهما ترك لصاحبه فقد أخذ بالفضل. ويقال: إن الله تعالى ندب إلى الإنسانية، فأمر كل واحد منهما بالعفو، ثم قال تعالى: {وَلا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ}، يعني لا تتركوا الفضل والإنسانية فيما بينكم في إتمام المهر أو في الترك. {إِنَّ اللَّهَ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ } فيجازيكم بذلك.اه [١٢] هكذا باختصار في الآية وإلا فإنها من آيات الأحكام التي يطول فيها الأخذ والرد، المهم أن العفو هنا هو الترك.

---

[١٢] تفسير السمرقندي = بحر العلوم (١/ ١٥٦) مؤلفه أبو الليث نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم السمرقندي (المتوفى: ٣٧٣هـ).

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

{أرأيت مَن اتخذ إلهه هواه}

{وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا (٤١) إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا (٤٢) أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا (٤٣) } (الفرقان: ٤١ – ٤٣)

مَن كان في طاعة الهوى في دينه يتبعه في كل ما يأتى ويذر لا يتبصر دليلا ولا يصغى إلى برهان؛ فهو عابد هواه وجاعله إلهه، فيقول الله لرسوله: هذا الذي لا يرى معبودا إلا هواه كيف تستطيع أن تدعوه إلى الهدى أفتتوكل عليه وتجبره على الإسلام وتقول لا بدّ أن تسلم شئت أو أبيت- ولا إكراه في الدين؟ وهذا كقوله تعالى: {وَما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ}، وقوله:{لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ} ويروى أنّ الرجل منهم كان يعبد الحجر، فإذا رأى أحسن منه رمى به وأخذ آخر.[١٣]

قال ابن كثير – رحمه الله – في تفسير هذه الآية: أرأيت من اتخذ إلهه هواه، أي: مهما استحسن من شيء ورآه حسنا في هوى نفسه كان دينه ومذهبه.ا.هـ

يقول القشيري [١٤]: كانوا يعبدون من الأصنام ما يهوون يستبدلون صنما بصنم، وكانوا يجرون على مقتضى ما يقع لهم. والمؤمن يمضي بحكم الله لا بحكم نفسه، وبهذا يتضح الفرقان بين رجل وبين رجل. والذي يعيش على ما يقع له فعابدٌ هواه، وملتحق بالذين ذكرهم الحقّ بالسوء فى هذه الآية.

---

١٣ تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (٣/ ٢٨٢)

١٤ لطائف الإشارات = تفسير القشيري (٢/ ٦٣٧)

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وقوله تعالى{ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالْأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً (٤٤)}؛كالأنعام التي ليس لها همّ إلّا فى أكلة وشربة، ومن استجلب حظوظ نفسه فكالبهائم. وإنّ الله- سبحانه- خلق الملائكة وعلى العقل جبلهم، والبهائم وعلى الهوى فطرهم، وبنى آدم وركّب فيهم الأمرين فمن غلب هواه عقله فهو شرّ من البهائم، ومن غلب عقله هواه فهو خير من الملائكة.. كذلك قال المشايخ..ا.هـ

يقول صاحب الظلال [١٥]: (ويُلتفت بالخطاب إلى رسول الله- صلّى الله عليه وسلّم- يعزيه عن عنادهم وجموحهم واستهزائهم، فهو لم يقصر في الدعوة، ولم يقصر في الحجة، ولم يستحق ما لاقوه به من التطاول، إنما العلة فيهم أنفسهم.

فهم يجعلون من هواهم إلها يعبدونه، ولا يرجعون إلى حجة أو برهان. وماذا يملك الرسول لمن يتخذ إلهه هواه: «أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلهَهُ هَواهُ. أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا؟»..

وهو تعبير عجيب يرسم نموذجا عميقا لحالة نفسية بارزة، حين تنفلت النفس من كل المعايير الثابتة والمقاييس المعلومة، والموازين المضبوطة، وتخضع لهواها، وتحكم شهواتها وتتعبد ذاتها، فلا تخضع لميزان، ولا تعترف بحد، ولا تقتنع بمنطق، متى اعترض هواها الطاغي الذي جعلت منه إلها يعبد ويطاع...

ثم يخطو خطوة أخرى في تحقير هؤلاء الذين يتعبدون هواهم، ويحكمون شهواتهم، ويتنكرون للحجة والحقيقة، تعبدا لذواتهم وهواها وشهواتها. يخطو خطوة أخرى فيسويهم بالأنعام التي لا تسمع ولا تعقل.

---

١٥ في ظلال القرآن (٥/ ٢٥٦٦)

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ثم يخطو الخطوة الأخيرة فيدحرجهم من مكانة الأنعام إلى درك أسفل وأحط:

«أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ؟ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعامِ. بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا».

وفي التعبير تحرز وإنصاف، إذ يذكر «أَكْثَرَهُمْ» ولا يعمم، لأن قلة منهم كانت تجنح إلى الهدى، أو تقف عند الحقيقة تتدبرها. فأما الكثرة التي تتخذ من الهوى إلها مطاعا، والتي تتجاهل الدلائل وهي تطرق الأسماع والعقول، فهي كالأنعام. وما يفرق الإنسان من البهيمة إلا الاستعداد للتدبر والإدراك، والتكيف وفق ما يتدبر ويدرك من الحقائق عن بصيرة وقصد وإرادة واقتناع، ووقوف عند الحجة والاقتناع. بل إن الإنسان حين يتجرد من خصائصه هذه ليكونن أحط من البهيمة، لأن البهيمة تهتدى بما أودعها الله من استعداد، فتؤدي وظائفها أداء كاملا صحيحا. بينما يهمل الإنسان ما أودعه الله من خصائص، ولا ينتفع بها كما تنتفع البهيمة.ا.هـ.

{أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٢٣)} (الجاثية: ٢٣). ففى هذه الصورة المفردة لواحد من آحاد الضالين المكذبين، يرى كلّ واحد من أهل الزيغ والضلال وجوده فى هذه الصورة، وينكشف له الداء المسلط عليه.

فهذا المكذب بآيات الله، المعرض عن دعوة الهدى التي يدعوه إليها رسول الله- إنما يتبع هواه، وينقاد له، انقياد المؤمنين لله.. فالإله الذي يعبده هذا السفيه الضال، هو ما يقيمه له هواه، ويصوره له سفهه، من معبودات يتخذها من دون الله، من أصنام وغير أصنام.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

قوله تعالى: «وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلى عِلْمٍ» جملة حالية من فاعل «اتَّخَذَ» وهو هذا الذي اتخذ هواه إلها معبودا من دون الله.. أي أنه قد اتخذ إله هواه، فى الحال التي أضله الله فيها على علم.. وهذا يعنى أنه، مع ما جاءه من العلم الذي بلّغه الرسول إياه، وكشف له به معالم الطريق إلى الله- قد اتبع هواه، وركب مركب الضلال.

نعوذ بالله من الضلال وأهله.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

{ قالوا فيم كنتم}

قوله سبحانه: {إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (٩٧) إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا (٩٨) فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا (٩٩)} (النساء: ٩٧ - ٩٩)

قال تعالى: {إنَّ الذين توفاهم الملائكة} أَيْ: قبضت أرواحهم نزلت في قومٍ كانوا قد أسلموا ولم يهاجروا حتى خرج المشركون إلى بدر فخرجوا معهم فقتلوا يوم بدرٍ فضربت الملائكة وجوههم وأدبارهم وقوله: {ظالمي أنفسهم} بالمقام في دار الشِّرك والخروج مع المشركين لقتال المسلمين {قالوا فيم كنتم} أَيْ: قالت الملائكة لهؤلاء سؤال توبيخٍ وتقريع: أكنتم في المشركين أم كنتم في المسلمين؟ فاعتذروا بالضَّعف عن مقاومة أهل الشِّرك في دارهم فـ {قالوا كنا مستضعفين في الأرض} أَيْ: في مكة فحاجَّتهم الملائكة بالهجرة إلى غير دارهم و {قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً} أخبر الله تعالى أنَّ هؤلاء من أهل النَّار ثمَّ استثنى من صدق في أنَّه مستضعفٌ فقال: {إلاَّ المستضعفين} أي: الذين يوجدون ضعفاء {لا يستطيعون حيلة} لا يقدرون على حيلةٍ ولا نفقةٍ ولا قوَّةٍ للخروج {وَلا يَهْتَدُونَ سَبِيلا} لا يعرفون طريقاً إلى المدينة قال تعالى {فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا}.[١٦]

***

١٦ راجع الوجيز للواحدي (ص: ٢٨٣-٢٨٥) دار القلم بيروت ودمشق.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وقال الإمام الطبري: أى إن الذين تقبض أرواحهم الملائكة ظالمي أنفسهم"، يعني: مكسبي أنفسهم غضبَ الله وسخطه. يقول: قالت الملائكة لهم:"فيم كنتم"، في أيِّ شيء كنتم من دينكم"قالوا كنا مستضعفين في الأرض"، يعني: يستضعفنا أهل الشرك بالله في أرضنا وبلادنا بكثرة عددهم وقوتهم، فيمنعونا من الإيمان بالله، واتباع رسوله صلى الله عليه وسلم، معذرةٌ ضعيفةٌ وحُجَّة واهية."قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها"، يقول: فتخرجوا من أرضكم ودوركم، وتفارقوا مَن يمنعكم بها من الإيمان بالله واتباع رسوله صلى الله عليه وسلم، إلى الأرض التي لا يمنعكم أهلها من سلطان أهل الشرك بالله، فتوحِّدوا الله فيها وتعبدوه، وتتبعوا نبيَّه؟ يقول الله جل ثناؤه:"فأولئك مأواهم جهنم"، أي: فهؤلاء "مأواهم جهنم"، مصيرهم في الآخرة جهنم، وهي مسكنهم، "وساءت مصيرًا"، يعني: وساءت جهنم لأهلها الذين صاروا إليها "مصيرًا" ومسكنًا ومأوى.

ثم استثنى جل ثناؤه المستضعفين الذين استضعفهم المشركون"من الرجال والنساء والولدان"، وهم العجزة عن الهجرة بالعُسْرة، وقلّة الحيلة، وسوء البصر والمعرفة بالطريق من أرضهم أرضِ الشرك إلى أرض الإسلام، استثناهم من أن تكون جهنم مأواهم، للعذر الذي هم فيه، على ما بينه تعالى ذكره.

يقول الله جل ثناؤه:"فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم"، أى لعل الله أن يعفو عنهم، للعذر الذي هم فيه وهم مؤمنون، فيفضل عليهم بالصفح عنهم في تركهم الهجرة، إذ لم يتركوها اختيارًا ولا إيثارًا منهم لدار الكفر على دار الإسلام، ولكن للعجز الذي هم فيه عن النّقلة عنها "وكان الله عفوًّا غفورًا" يقول: ولم يزل الله"عفوًّا" يعني: ذا صفح بفضله عن ذنوب عباده، بتركه العقوبة عليها "غفورًا"، ساترًا عليهم ذنوبهم بعفوه لهم عنها.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وذكر أن هاتين الآيتين والتي بعدهما، نزلت في أقوام من أهل مكة كانوا قد أسلموا وآمنوا بالله وبرسوله، وتخلَّفوا عن الهجرة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حين هاجر، وعُرِض بعضهم على الفتنة فافْتُتِن، وشهد مع المشركين حرب المسلمين، فأبى الله قبول معذرتهم التي اعتذروا بها، التي بينها في قوله خبرًا عنهم:"قالوا كنا مستضعفين في الأرض". ا.هـ [١٧]

«وَدَلَّتْ سُنَّةُ رَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): عَلَى أَنَّ فَرْضَ الْهِجْرَةِ-: عَلَى مَنْ أَطَاقَهَا، - إنَّمَا هُوَ: عَلَى مَنْ فُتِنَ عَنْ دِينِهِ، بِالْبَلْدَةِ الَّتِي يُسْلِمُ بِهَا.»

«لِأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) أَذِنَ لِقَوْمٍ بِمَكَّةَ: أَنْ يُقِيمُوا بِهَا، بَعْدَ إسْلَامِهِمْ- مِنْهُمْ: الْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَغَيْرُهُ. إذْ لَمْ يَخَافُوا الْفِتْنَةَ. وَكَانَ يَأْمُرُ جُيُوشَهُ: أَنْ يَقُولُوا لِمَنْ أَسْلَمَ: إنْ هَاجَرْتُمْ:

فَلَكُمْ مَا لِلْمُهَاجِرِينَ وَإِنْ أَقَمْتُمْ: فَأَنْتُمْ كَأَعْرَابِ الْمُسْلِمِينَ. وَلَيْسَ يُخَيِّرُهُمْ، إلَّا فِيمَا يَحِلُّ لَهُمْ.» [١٨].

قال ابن عطية في المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٢/ ٩٩) وما بعدها:

المراد بهذه الآية جماعة من أهل مكة كانوا قد أسلموا وأظهروا للنبي صلى الله عليه وسلم الإيمان به، فلما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم أقاموا مع قومهم، وفتن منهم جماعة فافتتنوا، فلما كان أمر بدر خرج منهم قوم مع الكفار فقتلوا ببدر، فنزلت الآية فيهم، قال ابن عباس رضي الله عنهما، كان قوم من أهل مكة قد أسلموا وكانوا يستخفون بإسلامهم، فأخرجهم المشركون يوم بدر فأصيب

---

[١٧] تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (٩/ ١٠٠) باختصار يسير.

١٨ أحكام القرآن للشافعي - جمع البيهقي (٢/ ١٧) مكتبة الخانجي القاهرة.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

بعضهم، فقال المسلمون كان أصحابنا هؤلاء مسلمين وأكرهوا، فاستغفروا لهم، فنزلت إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ الآية. قال: فكتب إلى من بقي بمكة من المسلمين بهذه الآية، أن لا عذر لهم، فخرجوا فلحقهم المشركون فأعطوهم الفتنة، فنزلت فيهم هذه الآية الأخرى، {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذابِ اللَّهِ} (العنكبوت: ١٠) الآية فكتب إليهم المسلمون بذلك فخرجوا ويئسوا من كل خير. ثم نزلت فيهم { ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هاجَرُوا مِنْ بَعْدِ ما فُتِنُوا ثُمَّ جاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِها لَغَفُورٌ رَحِيمٌ} (النحل: ١١٠) فكتبوا إليهم بذلك، أن الله قد جعل لكم مخرجا فخرجوا فلحقهم المشركون فقاتلوهم حتى نجا من نجا وقتل من قتل، وقال عكرمة: نزلت هذه الآية في خمسة قتلوا ببدر، وهم قيس بن الفاكه بن المغيرة، والحارث بن زمعة بن الأسود بن أسد، وقيس بن الوليد بن المغيرة، وأبو العاصي بن منبه بن الحجاج، وعلي بن أمية بن خلف، قال النقاش: في أناس سواهم أسلموا ثم خرجوا إلى بدر، فلما رأوا قلة المسلمين قالوا: غر هؤلاء دينهم.

قال القاضي أبو محمد- رحمه الله-: وكان العباس ممن خرج مع الكفار لكنه نجا وأسر، وكان من المطعمين في نفير بدر، قال السدي: لما أسر العباس وعقيل ونوفل، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للعباس: افد نفسك وابن أخيك، فقال له العباس: يا رسول الله، ألم نصل قبلتك ونشهد شهادتك؟ قال «يا عباس: إنكم خاصمتم فخصمتم»، ثم تلا عليه هذه الآية أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ واسِعَةً فَتُهاجِرُوا فِيها قال السدي: فيوم نزلت هذه الآية كان من أسلم ولم يهاجر فهو كافر حتى يهاجر، إلا من لا يستطيع حيلة ولا يهتدي سبيلا.

قال القاضي أبو محمد- رحمه الله-: وفي هذا الذي قاله السدي نظر، والذي يجري مع الأصول أن من مات من أولئك بعد أن قبل الفتنة وارتد فهو كافر ومأواه جهنم

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

على جهة الخلود، وهذا هو ظاهر أمر تلك الجماعة وإن فرضنا فيهم من مات مؤمنا وأكره على الخروج، أو مات بمكة فإنما هو عاص في ترك الهجرة، مأواه جهنم على جهة العصيان دون خلود، لكن لما لم يتعين أحد أنه مات على الإيمان لم يسغ ذكرهم في الصحابة، ولم يعتد بما كان عرف منهم قبل، ولا حجة للمعتزلة في شيء من أمر هؤلاء على تكفيرهم بالمعاصي، وأما العباس فقد ذكر ابن عبد البر رحمه الله أنه أسلم قبل بدر، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في يوم بدر من لقي العباس فلا يقتله، فإنما أخرج كرها.

قال القاضي أبو محمد عبد الحق- رحمه الله- وذكر أنه إنما أسلم مأسورا حين ذكر له النبي صلى الله عليه وسلم أمر المال الذي ترك عند أم الفضل، وذكر أنه أسلم في عام خيبر، وكان يكتب إلى رسول الله بأخبار المشركين، وكان يحب أن يهاجر، فكتب إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم أن امكث بمكة فمقامك بها أنفع لنا.

قال القاضي أبو محمد: لكن عامله رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أسر على ظاهر أمره. ا.هـ.

يقول الشيخ رشيد رضا- رحمه الله: هذه الآيات في الهجرة نزلت في سياق أحكام القتال ؛ لأن بلاد العرب كانت في ذلك العهد قسمين: دار هجرة المسلمين ومأمنهم، ودار الشرك والحرب، وكان غير المسلم في دار الإسلام حرا في دينه لا يفتن عنه، وحرا في نفسه لا يمنع أن يسافر حيث شاء.

وأما المسلم في دار الشرك فكان مضطهدا في دينه يفتن ويعذب لأجله، ويمنع من الهجرة إن كان مستضعفا لا قوة له ولا أولياء يحمونه، وكانت الهجرة لأجل هذا واجبة على كل من يسلم ليكون حرا في دينه آمنا في نفسه، وليكون وليا ونصيرا

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

للنبي – صلى الله عليه وسلم – والمؤمنين الذين كان الكفار يهاجمونهم المرة بعد المرة، وليتلقى أحكام الدين عند نزولها، وكان كثير منهم يكتم إيمانه ويخفي إسلامه ليتمكن من الهجرة، وفي مثل هذه الحال ينقسم الناس بالطبع إلى أقسام منهم من ذكرنا، ومنهم القوي الشجاع الذي يظهر إيمانه وهجرته وإن عرض نفسه للمقاومة، ومنهم من يؤثر البقاء في وطنه بين أهله ؛ لأنه لضعف إيمانه يؤثر مصلحة الدنيا التي هو فيها على الدين، ومنهم الضعيف المستضعف الذي لا يقدر على التفلت من مراقبة المشركين وظلمهم، ولا يدري أية حيلة يعمل ولا أي طريق يسلك، وقد بين الله حكم من يترك الهجرة لضعف دينه وظلمه لنفسه مع قدرته عليها أو أرادها، ومن يتركها لعجزه وقلة حيلته وظلم المشركين له. (١٩)

(في هذه الآيات دعوة مشدّدة إلى محاربة الظلم والبغي والعدوان، بأسلوب غير أسلوب القوة، ولقاء العدوان بالعدوان، والشر بالشر، حين يكون الإنسان في وجه قوة عاتية متسلطة، ولا قدرة له على دفعها..

إن كرامة الإنسان تفرض عليه أن يدفع عن وجوده الضيم والذل، بكل ما يملك من وسائل مادية وغير مادية، وإلا فقد باع إنسانيّته بثمن بخس، ودرج نفسه في قائمة الخسيس من الحيوان.

ولن يقيم على ضيم يراد به... إلا الأذلّان: غير الحىّ والوتد

هذا على الخسف مربوط برمّته... وذا يشج فلا يرثى له أحد

---

١٩ الشيخ محمد رشيد رضا في تفسير المنار (٥/ ٢٨٩).

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وحين لا يجد الإنسان بين يديه القوة التي يدفع بها يد الظلم المسلّطة عليه، كان إمساك نفسه على هذا المرعى الخبيث وعدم التحول عنه، إقرارا بقبول الظلم، ونزولا على حكم الظالمين.

لهذا أوجب الإسلام على المسلم أن يحرك فى نفسه كل قواه، لإنكار هذا الظلم، والتصدّى له: «أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ».. فحيث أمكنت المسلم القوة التي يدفع بها يد الظلم والبغي، وجب عليه أن يستعمل حقه، فى الدفاع عن نفسه، وصيانة كرامته وإنسانيته..

وسلاح آخر، وضعه الإسلام في يد المسلم حين تخلو يده من سلاح القوة، وهو الهجرة من ديار الظالمين، إلى أرض الله الواسعة، حيث يجد الإنسان وجوده وإنسانيته.. وبهذا يستنقذ نفسه، ويفوّت على الظالمين إشباع شهوة الظلم والتسلط، فيه، وفى غيره من المستضعفين، حيث فتح لهم الطريق إلى الخلاص مما هم فيه من بلاء، بالهجرة والفرار من وجه الظالمين! وفى هذا الحديث الذي يدور بين الملائكة، وبين أولئك المستضعفين الذي أبوا أن يتحولوا عن مواطن الظلم- إيثارا لديارهم وأهليهم على كرامتهم وإنسانيتهم، ومعتقدهم- فى هذا الحديث مساءلة لهؤلاء الذين استضعفوا فقبلوا هذا الاستضعاف ورضوا به، واتهام لهم بتلك الجناية التي جنوها على أنفسهم، وأذلّوا بها آدميّتهم، ومحاكمة تنتهى بهم إلى عذاب السعير فى الآخرة، حيث ضاع إيمانهم فيما ضاع من آدميتهم، تحت سياط الظلم والعسف! وهذا يعنى أن المؤمن لا يصبر أبدا على الظلم، ولا يقبله، وأنه إن قبله، وصبر عليه، لم يكن فى المؤمنين.. لأن المؤمن عزيز بالله، كريم على الله..

وطاعم الظلم ومستسيغه لا عزّة له ولا كرامة! فمن وجد القدرة على الهجرة والفرار من وجه الظلم والبغي، ولم يهاجر فهو آثم عند الله.. لأنه فى معرض الفتنة فى دينه،

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وهيهات أن يسلم له دين، وهو فى هذا الموطن، الذي تنطلق منه شرارات البغي، فتحرق مادياته ومعنوياته جميعا..

وليست الهجرة هنا مقصورة على زمن معين، أو مكان معين.. بل الهجرة مفتوحة فى كل زمان، وإلى كل مكان، يجد فيه المؤمن متنّفسا لمشاعره، ومنطلقا للسانه، ووجوها لسعيه! وقوله تعالى: «إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجالِ وَالنِّساءِ وَالْوِلْدانِ لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا» استثناء وارد على الحكم العام الذي حكم به الله تعالى على المستضعفين الذين سكنوا إلى الظالمين، ولم يهاجروا.. فهؤلاء المستضعفون من الرجال والنساء، والولدان، لا حيلة لهم ولا قدرة معهم على الهجرة، فهم معذورون إذا لم يهاجروا، وقد أعفاهم الله من هذا العقاب الذي أخذ به القادرين على الهجرة، وقعدوا عنها.

وقوله تعالى: «فَأُولئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ» تحريض لهؤلاء المستضعفين أن يكونوا على نيّة الهجرة دائما، وأن يعملوا لها، وأن يرصدوا أسباب القدرة عليها، فإن أمكنتهم الهجرة هاجروا.. وإلا فإن الله كان غفورا رحيما، يغفر لهم ما يكون منهم من ضعف يمسّ عقيدتهم، رحمة بهم من رب رحيم.ا.هـ [٢٠]

---

[٢٠] التفسير القرآني للقرآن (٣/٨٨٠-٨٧٨) عبد الكريم يونس الخطيب (المتوفى: بعد ١٣٩٠هـ)، دار الفكر العربي – القاهرة.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

{إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون}

"الربانية" تلك خاصية الإسلام الأولى التي أشار إليها قوله تعالى: { إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩)} (الحجر: ٩)، و سياق الآيات يجيبنا عن أولئك المارقين الذي يريدون سلب الدين (القرآن والسنة) خاصية (الربانية) باستهزائهم وألاعيبهم...

وقوله تعالى: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ}

رد لإنكارهم واستهزائهم في قولهم {يا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ}؛ ولذلك قال: {إنا نحن}، فأكد عليهم أنه هو سبحانه المنزِّل على القطع والبتات، وأنه هو الذي بعث به جبريل إلى محمد صلى الله عليه وسلم وبين يديه ومن خلفه رصدٌ، حتى نزل وبُلِّغ محفوظا من الشياطين وهو حافظه في كل وقت من كل زيادة ونقصان وتحريف وتبديل، بخلاف الكتب المتقدمة، فإنه لم يتول حفظها. وإنما استحفظها الربانيين والأحبار فاختلفوا فيما بينهم بغيا فكان التحريف ولم يكل القرآن إلى غير حفظه.[٢١]

أقول: وقد اتفق العلماء ان التحريف على ضربين: تحريف في اللفظ، وتحريف في المعنى بالتأويل الباطل، وكلا التحرفين اقترفه اليهود والنصارى؛وقد حفظ الله تعالى القرآن من تحريف اللفظ فسعى الهالكون إلى تحريف معانيه بمناهجهم الباطلة والله متم نوره ولو كره المشركون.

---

٢١ تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (٢/ ٥٧٢)

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

{ لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم}

{وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ (٦٥) لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (٦٦)} (التوبة: ٦٥، ٦٦)

عن عبد الله بن عمر قال: قال رجل في غزوة تبوك في مجلس يوما: ما رأيت مثل قرائنا هؤلاء لا أرغب بطونا ولا أكذب ألسنة ولا أجبن عند اللقاء، فقال رجل في المجلس: كذبت ولكنك منافق لأخبرن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم ونزل القرآن قال عبد الله: فأنا رأيته متعلقا بحقب ناقة رسول الله تنكبه الحجارة وهو يقول يا رسول الله إنما كنا نخوض ونلعب، ورسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يقول: {أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ}. (٢٢)

وأخرج ابن جرير عن قتادة: أن ناسا من المنافقين قالوا فى غزوة تبوك: يرجوا هذا الرجل أن يفتح قصور الشام وحصونها هيهات...

({وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ} لام قسم اى والله لئن سالتهم عن استهزائهم بك وبالقرآن وهم سائرون معك فى غزوة تبوك {لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِؤُنَ (٦٥)} يعنى قل ذلك توبيخا على استهزائهم بمن لا يصح الاستهزاء به وإلزاما للحجة عليهم ولا تعبأ باعتذارهم الكاذب.. {لا تَعْتَذِرُوا} اى

---

٢٢ أخرجه ابن أبي حاتم ج٤ ص٦٣ حدثنا يونس بن عبد الأعلى حدثنا عبد الله بن وهب أخبرني هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن عبد الله بن عمر به ....والحديث رجاله رجال الصحيح إلا هشام بن سعد فلم يخرج له مسلم إلا في الشواهد كما في الميزان وأخرجه الطبري من طريقه ج١٠ ص١٧٢ وله شاهد بسند حسن عند ابن أبي حاتم ج٤ ص٦٤ من حديث كعب بن مالك .ا.هـ. من الصحيح المسند من أسباب النزول للعلامة مقبل بن هادي الوادعي (ص: ١٠٨) دار ابن تيمية القاهرة.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

لا تشتغلوا باعتذاراتكم الكاذبة فإنها معلومة الكذب {قَدْ كَفَرْتُمْ} أي أظهرتم الكفر بإيذاء الرسول والطعن فيه {بَعْدَ إِيمانِكُمْ} أي اظهاركم الايمان {إِنْ نَعْفُ عَنْ طائِفَةٍ مِنْكُمْ} لتوبتهم وإخلاصهم. قال محمد بن إسحاق: الذي عفى عنه رجل واحد وهو مخشى بن حمير الأشجعي، هو الذي كان يضحك ولا يخوض، وكان يمشى مجانبا لهم وينكر بعض ما يسمع، فلما نزلت هذه الآيات تاب من نفاقه قال: اللهم لا أزال اسمع آية تقربها عينى وتقشعر منها الجلود وتجب منها القلوب؛ اللهم اجعل وفاتي قتلا فى سبيلك؛ لا يقول أحد أنا غسلت؛ أنا دفنت (أي يقبل مخلصاً صادقاً خفياً تقياً في استشهاده)؛ فأصيب يوم اليمامة فما أحد من المسلمين الا عُرِف مصرعه غيره.(أي قُبِل عند الله والحمد لله).

{نُعَذِّبْ طائِفَةً بِأَنَّهُمْ كانُوا مُجْرِمِينَ (٦٦)} بالإصرار على النفاق وإيذاء الرسول والاستهزاء.ا.هـ.[٢٣]

قال السعدي رحمه الله:

فإن الاستهزاء بالله وآياته ورسوله كفر مخرج عن الدين لأن أصل الدين مبني على تعظيم الله وتعظيم دينه ورسله والاستهزاء بشيء من ذلك مناف لهذا الأصل ومناقض له أشد المناقضة. وفي هذه الآيات دليل على أن من أسر سريرة خصوصا السريرة التي يمكر فيها بدينه ويستهزئ به وبآياته ورسوله فإن الله تعالى يظهرها ويفضح صاحبها ويعاقبه أشد العقوبة.

---

٢٣ التفسير المظهري (٤/ ٢٥٩-٢٦٢) المظهري، محمد ثناء الله،باختصار، مكتبة الرشدية – الباكستان،١٤١٢ هـ.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وأن من استهزأ بشيء من كتاب الله أو سنة رسوله الثابتة عنه أو سخر بذلك أو تنقصه أو استهزأ بالرسول أو تنقصه فإنه كافر بالله العظيم وأن التوبة مقبولة من كل ذنب وإن كان عظيما. [٢٤]

قلت: والتحقيق في العقيدة عند أهل السنة والجماعة أن من الذنوب نوعان: نوع يضاد أصل الإيمان كالاستهزاء بالله ورسوله وشرعه وسب الدين وسب الرسول وتكذيب القرآن واعتقاد استحلال ما حرم الله تعالى...إلخ، ونظير ذلك فهذه ذنوب تكفِّر بذاتها. ومن الذنوب نوع آخر مهما عظم لا يضاد أصل الإيمان فهذا مما لا يخرج به المسلم عن الملة إلا إن استحله بقلبه، ولعله المقصود من قول الإمام الطحاوي في عقيدته: (ولا نكفر أحدا من أهل القبلة بذنب ما لم يستحله).. والأولى كما قال علماؤنا أن تعدل العبارة لتصير: (ولا نكفر أحدا من أهل القبلة بكل ذنب ما لم يستحله بقلبه)؛ فإن فعل الكبيرة في الحقيقة هو استحلال عملي لها ولا يلزم ان يستحلها بقلبه؛ فتنبه.

---

[٢٤] تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ٣٤٢،٣٤٣)باختصار.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

{ كتب عليكم القصاص}

وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى { {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٨)} (البقرة: ١٧٨).

قوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى} أي: فرض عليكم. {الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى} قال ابن عباس: كان هذا في ابتداء الإسلام، وكان القصاص بين الحر والحر، والعبد مع العبد، والأنثى مع الأنثى، وما كان يقتل الحر بالعبد، ولا العبد بالحر، ولا الذكر بالأنثى، ولا الأنثى بالذكر: ثم نسخ ذلك بقوله: {وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس} فجرى القصاص بين الكل.

وأما علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقد قال في الحر إذا قتل عبدا: يقتل الحر به، ثم سيد العبد يغرم لولى القاتل الحر، ما بين ديته وقيمة العبد، وإذا قتل العبد حرا، يقتل العبد به، ثم يغرم سيد العبد القاتل لولى الحر المقتول ما بين ديته وقيمة العبد.

وفيه قول آخر محكي عن ابن عباس: أن الآية نزلت في قبيلتين، كان لأحديهما على الأخرى فضل. فقالت القبيلة الفاضلة: يقتل الحر منكم بالعبد منا، والذكر منكم بالأنثى منا؛ فنزلت الآية ردا لقولهم.

وقوله تعالى: {فمن عفى له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان} وأصل العفو: الترك. وأظهر الأقوال فيه: مذهب عامة الصحابة والتابعين؛ أن من عفا عن القصاص فله أخذ الدية، فهذا يتبع بالمعروف، يعني: لا يطلب المزيد على قدر حقه. ويؤدي ذلك بالإحسان، أي: لا يماطل في الأداء.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

قال الأزهري: في الآية تقدير: ومعناه: فمن جعل له من مال أخيه يعني القاتل أو فمن جعل له من بدل دم أخيه يعني المقتول عفو أي: فضل، فليتبع الطالب بالمعروف، وليؤد المطلوب بالإحسان.

وظاهره يقتضي أن أخوة الدين لا تنقطع بين القاتل والمقتول، حيث قال: من أخيه، وهو الذي نقول به. وقيل: معناه أخوة النسب.

وقيل: إنما سماه أخا حال إنزال الآية، وحال نزول الآية كان أخا له قبل حصول القتل، لا أنه يبقى أخا له، فإن القتل يقطع الموالاة بين القاتل والمقتول، ويوجب البراءة (منه)؛ لفسقه وقتله.

{ذلك تخفيف من ربكم ورحمة} ومعناه: أن الدية كانت في شرع النصارى حتما، والقصاص في شرع اليهود حتما، وخيرت هذه الأمة بين القصاص والدية، (فذلك) التخفيف.

{فمن اعتدى بعد ذلك} أي: قتل بعد العفو. {فله عذاب أليم} أي: القصاص.

قال ابن جريج: إن القصاص حتم عليه، بحيث لا يقبل العفو. [٢٥]

[٢٥] تفسير السمعاني (المتوفى: ٤٨٩هـ) (١/ ١٧٣) دار الوطن، الرياض – السعودية.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

آيات في الجهاد وفروعه في الإسلام

قال الله تعالى: { وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا (٦٩) ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا (٧٠) يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انْفِرُوا جَمِيعًا (٧١) وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا (٧٢) وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَالَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧٣) فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (٧٤)} (النساء: ٦٩ – ٧٤)...

وعلى التوسعة في معنى الجهاد؛ الذي هو بذل الجهد في نصرة الحق بالقلب واللسان والجوراح؛ بالقرآن والحجة والسيف، وقد قال تعالى {فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا (٥٢)} (الفرقان: ٥٢)..

فهذا جهاد لهم بالقرآن وهو أكبر الجهادين وهو جهاد المنافقين ايضا فإن المنافقين لم يكونوا يقاتلون المسلمين بل كانوامعهم في الظاهر وربما كانوا يقاتلون عدوهم معهم ومع هذا فقد قال تعالى يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومعلوم ان جهاد المنافقين بالحجة والقرآن والمقصود ان سبيل الله هي الجهاد وطلب العلم ودعوة الخلق به الى الله.[٢٦]

فهذه سورة مكية أمر فيها بجهاد الكفار بالحجة والبيان وتبليغ القرآن، وكذلك جهاد المنافقين إنما هو بتبليغ الحجة، وإلا فهم تحت قهر أهل الإسلام، قال تعالى:

---

٢٦ مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة (١/ ٧٠)

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

{يأيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير} (التوبة: ٧٣) فجهاد المنافقين أصعب من جهاد الكفار، وهو جهاد خواص الأمة وورثة الرسل، والقائمون به أفراد في العالم، والمشاركون فيه والمعاونون عليه وإن كانوا هم الأقلين عددا فهم الأعظمون عند الله قدرا.

ولما كان من أفضل الجهاد قول الحق مع شدة المعارض، مثل أن تتكلم به عند من تخاف سطوته وأذاه، كان للرسل – صلوات الله عليهم وسلامه – من ذلك الحظ الأوفر، وكان لنبينا – صلوات الله وسلامه عليه – من ذلك أكمل الجهاد وأتمه.

ولما كان جهاد أعداء الله في الخارج فرعا على جهاد العبد نفسه في ذات الله، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «المجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه» كان جهاد النفس مقدما على جهاد العدو في الخارج، وأصلا له، فإنه ما لم يجاهد نفسه أولا لتفعل ما أمرت به وتترك ما نهيت عنه ويحاربها في الله لم يمكنه جهاد عدوه في الخارج، فكيف يمكنه جهاد عدوه والانتصاف منه وعدوه الذي بين جنبيه قاهر له متسلط عليه لم يجاهده ولم يحاربه في الله، بل لا يمكنه الخروج إلى عدوه حتى يجاهد نفسه على الخروج.

فهذان عدوان قد امتحن العبد بجهادهما، وبينهما عدو ثالث لا يمكنه جهادهما إلا بجهاده، وهو واقف بينهما يثبط العبد عن جهادهما، ويخذله ويرجف به، ولا يزال يخيل له ما في جهادهما من المشاق وترك الحظوظ وفوت اللذات والمشتهيات، ولا يمكنه أن يجاهد ذينك العدوين إلا بجهاده، فكان جهاده هو الأصل لجهادهما، وهو الشيطان، قال تعالى: {إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا} (فاطر: ٦)، والأمر باتخاذه عدوا تنبيه على استفراغ الوسع في محاربته، ومجاهدته، كأنه عدو لا يفتر ولا يقصر عن محاربة العبد على عدد الأنفاس.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

فهذه ثلاثة أعداء، أمر العبد بمحاربتها وجهادها.[٢٧]

والخطاب في آيات سورة " النساء" للمؤمنين تحذيراً من الاستكانة للراحة وإحسان الظن بالعدو المتربص دائما {خذوا حِذْرَكُمْ}: أي سلاحكم.واحذروا عدوّكم. (وفي تفسير السمعاني (١/ ٤٤٦) أي: عدتكم، والحذر: ما يتقى به من العدو، نحو العدة والسلاح، (فانفروا ثبات) جمع " ثبة " قال ابن عباس: " الثبة ": ما فوق العشرة، وقال أبو عمرو بن العلاء: " الثبة " النفر، ومعناه: انفروا جماعات، نفرا نفرا (أو انفروا جميعا).وهذا دليل على أن الجهاد فرض على الكفاية).

فهذا أمر من الله للمؤمنين أن يأخذوا أسلحتهم وينفروا إلى عدوهم مجتمعين أو متفرقين، جماعة بعد جماعة، يعني سرايا متفرقين.

{وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ}: أي: المنافقين. يبطّئون النّاس عن الجهاد. قال الراغب في المفردات: «أي يثبط غيره. وقيل يُكثر هو التثبط في نفسه، والمقصد من ذلك أن منكم من يتأخر ويؤخر غيره».

قال الطبري- رحمه الله- في تفسيره: ٨/ ٥٣٨: «وهذا نعت من الله تعالى ذكره للمنافقين، نعتهم لنبيه صلّى الله عليه وسلّم وأصحابه ووصفهم بصفتهم فقال: {وَإِنَّ مِنْكُمْ}، أيها المؤمنون، يعني من عدادكم وقومكم، ومَن يتشبه بكم، ويظهر أنه من أهل دعوتكم وملتكم، وهو منافق يبطّئ من أطاعه منكم عن جهاد عدوكم وقتالهم إذا أنتم نفرتم إليهم «فإن أصابتكم مصيبة»، يقول: فإن أصابتكم هزيمة، من قتل أو جراح من عدوكم- «قال قد أنعم الله عليّ إذا لم أكن معهم شهيدا»، فيصيبني جراح أو ألم أو قتل، وسرّه تخلفه عنكم، شماتةً بكم... ».

---

٢٧ زاد المعاد في هدي خير العباد (٣/ ٥)

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وتساءل الفخر الرازي في تفسيره: ١٠/ ١٨٣ بقوله: «إذا كان هذا المبطئ منافقا فكيف جعل المنافق قسما من المؤمن في قوله: وَإِنَّ مِنْكُمْ؟. قال: «والجواب من وجوه:

الأول: أنه تعالى جعل المنافق من المؤمنين من حيث الجنس والنسب والاختلاط.

الثاني: أنه تعالى جعلهم من المؤمنين بحسب الظاهر لأنهم كانوا في الظاهر متشبهين بأهل الإيمان.

الثالث: كأنه قيل: يا أيها الذين آمنوا في زعمكم ودعواكم، كقوله: يا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ اهـ.

{وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ} أي: ظفر على عدوكم أو غنيمة. {لَيَقُولَنَّ} هذا الذي أبطأ عنكم، وجلس عن قتال عدوكم: {ياليتني كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزاً عَظِيماً} هذا كله صفة المنافق يشمت إذا أصاب المؤمن ضرر ويحسدهم إذا أصابوا نفعاً وظفراً، فهو غير راج ثواباً، ولا خائف من عقاب. وهو المقصود في: {كأن لم يكن بينكم وبينه مودة } أي كأنه ليس من أهل دينكم يسوءه ما أصابكم ويسره ما أنعم الله به عليكم.

وترشد الآيات إلى مواقف كل من المؤمنين والمنافقين الفارقة بين الإيمان والكفر حين يكون الأمر أمر دفاع عن الإسلام بأصوله ومنهاجه ضد مَن يتربص به الدوائر لتدميره..

فإن (من أقوى دعامات الإيمان، الجهاد فى سبيل الله، إذ كان أكثر التكاليف مشقة على النفس، وأنهكها للبدن والمال! ومن هنا كانت منزلة الجهاد فى الإسلام،

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ومقام المجاهدين عند الله، كما كان الجهاد مطلبا أول للمؤمنين، الذين صدقوا الله ما عاهدوه عليه.

ومن هنا أيضا كانت عناية الله بالمجاهدين، ورسم معالم الطريق لهم، وحراستهم من أن يغرّر بهم، أو يبيتوا.. فكانت وصاة الله سبحانه وتعالى للمجاهدين دستورا متكاملا، لمعاناة الحرب، والتهيؤ لها، والحذر من المكيدة، والأخذ بها..

فمن ذلك، الإعداد للحرب، والأخذ بوسائل القوة والغلب، وفى هذا يقول الله تعالى: «وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِباطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ» (٦٠: الأنفال) ومن ذلك أيضا، الحذر من مباغتة العدوّ عند انتهاز الغفلة من المؤمنين..

ومن ذلك أيضا الثبات فى المعركة، ومساندة المجاهدين بعضهم بعضا، حتى لكأنهم جسد واحد، وكلهم أعضاء فى هذا الجسد، فلا يطلب أحدهم السلامة لنفسه، كما لا يطلب السلامة لعضو من أعضائه بتعريض الجسد كله للتلف.. وهنا فى قوله تعالى: «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ» لفتة من لفتات السماء للمجاهدين أن يأخذوا حذرهم من عدوهم، فيكونوا دائما على تأهب واستعداد، فهى دعوة عامة إلى الحيطة والحذر، واليقظة الدائمة لملاقاة العدوّ بالقوة الرادعة، واليد المتمكنة الباطشة.

وقوله: «فَانْفِرُوا ثُباتٍ أَوِ انْفِرُوا جَمِيعاً» هو مظهر من مظاهر الحذر، حيث يتخير المجاهدون الأسلوب المناسب للقاء عدوّهم، فتارة يلقونه جماعة جماعة، وطورا يلقونه بقوتهم جميعا، حسب تقديرهم لقوة العدوّ، وللأسلوب الذي تمليه الحكمة، ويقتضيه النظر.، ويستدعيه الموقف.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وفى قوله تعالى: «وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ» إشارة فاضحة لجبن الجبناء، ونفاق المنافقين، من الذين يحشرون أنفسهم فى زمرة المجاهدين، ويضافون إليهم..

فهناك أفراد يغلبهم الحرص على أنفسهم، كما يغلب عليهم الطمع فيما يقع لأيدى المجاهدين من غنائم..

فإذ جاء النفير إلى الجهاد، تلبّثوا، وتعللوا بالعلل والمعاذير، حتى يفوتهم الركب المجاهد، وهم لا يزالون فى موقف من يتأهب للقتال، ويتجهز للّحاق بالمجاهدين.. ثم لا يزالون على هذا الموقف حتى تنتهى المعركة، وينفضّ سوقها..

وهنا ينكشف أمر هؤلاء الجبناء، ويفتضح نفاقهم حتى مع أنفسهم..

فإذا كانت الهزيمة فى المجاهدين، أظهروا الفرحة، وحمدوا لأنفسهم هذا الموقف المتخاذل الذي كان منهم، وقال قائلهم: «قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيداً».. لقد نجا بنفسه، وسلم من التلف، ومادرى أنه من الخاسرين، حيث فاته ثواب الشهداء، وأجر المجاهدين..

وإن كانت الغلبة للمجاهدين، نظر إلى ما فى أيديهم من أسلاب ومغانم، فامتلأت نفسه حسرة وأسى وندما، وتمنّى أن لو كان فى هذا الركب الظافر الغانم، وقال ونفسه تتقطع كمدا وحسرة: «يا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزاً عَظِيماً».

وفى قوله تعالى: «كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ» تنديد بهذه الخسّة

ذلك الجبن، الذي قطع أواصر الأخوّة والتناصر بينه وبين أصحابه.. فما على هذا الأسلوب الخسيس تقوم الصحبة بين الجماعة، التي من شأنها أن تتقاسم السرّاء والضرّاء، وأن تذوق الحلو والمرّ.. أمّا أن تقف لتتحيّن الفرصة لتشارك فى السّرّاء، ولا

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

تشارك فى الضراء، فذلك هو اللؤم الدنيء الذي ترفع عنه أدنى الحيوانات، التي إذا هاجمها عدوّ، لقيته يدا واحدة، وقوة مجتمعة![٢٨]

والحقيقة أن الجهاد قد صار فرضاً على المثقفين المؤمنين بالإسلام؛وابتداءاً وأولاً (الجهاد الفكري) لصد هجمات الغرب الثقافية على أصولنا وثوابتنا، خصوصاً أن حروب العقول والأفكار هي حروب المستقبل.

فإذا كان العالم قد خسر كثيرا حين انحط المسلمين، وسقط لواء حضارتهم.. والتي رسمت في وجدان التاريخ أرقى مظاهر الإنسانية، و أغنى قيم المدنية..

وإذا كانت هذه الخسارة بحيث جعلت المجال سانحا، والساحة خالية أمام القيم الفاسدة، والأفكار المبيرة (المخربة) التي دشنها و نشرها الغرب بكل حقدٍ وتبجح في ربوع العالم.

وكان آخر مشروعاته في نشر هذا الفساد والخسران عن طريق ما يدعى بالعولمة؛ والتي هى في الحقيقة (هيمنة) يراد بها نشر قيم وحضارة (الكاو بوى).. حضارة المادية المجرمة، والفردية القاسية.. حضارة المصلحة بلا رحمة.. والشهوات بلا حكمة..والاستعباد بكل جحودٍ وخسة...

هذا المشروع الاستخرابي القذر قد تفطنت إليه أمم شتى فأخذت تعد العدة و تجهز الدفاعات اللازمة لصد هذا الزحف القادم من هذا الذئب الغربي الأمريكي الصهيوني الماكر.

---

٢٨ التفسير القرآني للقرآن لعبد الكريم الخطيب (٣/ ٨٣١-٨٣٤)باختصار. ط دار الفكر العربي القاهرة.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

إذا كان هذا فإن الواجب على أمتنا أن تفيق؛ ويفيق أهل السنة والقرآن والإسلام وأتباع محمد - صلى الله عليه وسلم - المخلصين لما يُحاك لهم في الظلام، وما يجتمع عليهم من الحروب على ثوابتهم وأصولهم.

يقول العلامة محمود شاكر في مقدمة كتاب الظاهرة القرآنية:

(لم يكن غرض العدو أن يقارع ثقافة بثقافة، أو أن ينازل ضلالاً بهدى، أو أن يصارع باطلاً بحق، أو أن يمحو أسباب ضعف بأسباب قوة؛ بل كان غرضه الأول والأخير أن يترك في ميدان الثقافة في العالم الإسلامي، جرحى وصرعى لا تقوم لهم قائمة، وينصب في أرجائه عقولاً لا تدرك إلا ما يريد لها هو أن تعرف، فكانت جرائمه في تحطيم أعظم ثقافة إنسانية عرفت إلى هذا اليوم، كجرائمه في تحطيم الدول وإعجازها مثلاً بمثل. وقد كان ما أراد الله أن يكون، وظفر العدو فينا بما كان يبغي ويريد.)ا.هـ

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

لنا شرعة ولنا منهاج

ففي هذه الآية تبرز أهم قواعد المنهج السني الذي يتبع كتاب الله تعالى المهيمن على كل ما سواه من كتاب أو طريقة أو منهج؛ ثم بيان وحكم رسول الله صلى الله عليه وسلم بما أراه الله سبحانه؛ مخالفا أهواء المضلين. كل ذلك في اختبار رباني دقيق لاتباع منهج الحق ودربه يتبيَّن به أهل الحق من أهل الباطل بغير لبس ولا تردد {لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا} قال في الكشاف: {وَمِنْهاجاً} أي وطريقا واضحا في الدين تجرون عليه.

وعند القرطبي: وقال أبو العباس محمد بن يزيد: الشريعة ابتداء الطريق، والمنهاج الطريق المستمر. وروي عن ابن عباس والحسن وغيرهما" شرعة ومنهاجا" سنة وسبيلا. ومعنى الآية أنه جعل التوراة لأهلها، والإنجيل لأهله، والقرآن لأهله، وهذا في الشرائع والعبادات، والأصل التوحيد لا اختلاف فيه، روي معنى ذلك عن قتادة. وقال مجاهد: الشرعة والمنهاج دين محمد عليه السلام، وقد نسخ به كل ما سواه. (٢٩)

وقوله (تعالى): {لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً} (المائدة: ٤٨).

يقول العلامة القشيري – رحمه الله تعالى –: قدّم سبحانه تعريفه- صلّى الله عليه وسلّم- بقَصص الأولين على تكليفه بإتباع ما أُنزل الله عليه لئلا يسلك سبيل من تقدّمه فيستوجب ما استوجبوه.

---

٢٩ تفسير القرطبي (٦/ ٢١١)

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وقوله جل ذكره: { فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ، وَلا تَتَّبِعْ أَهْواءَهُمْ عَمَّا جاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهاجاً، وَلَوْ شاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً واحِدَةً، وَلكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي ما آتاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْراتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ }.

أي لا تتملكك مودة قريب أو حميم، واعتنق ملازمة أمر الله- تبارك وتعالى- بترك كل نصيب لك. ثم قال: «لِكُلٍّ جَعَلْنا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهاجاً» يعنى طريقة وسنّة، أي أفردنا كلّ واحد منكم- معاشر الأنبياء- بطريقة، وأمّا أنت فلا يدانيك فى طريقتك أحد، وأنت المقدَّم على الكافة، والمفضَّل على الجملة، ولو شاء الله لسوّى مراتبكم، ولكن غاير بينكم ابتلاء، وفضّل بعضكم على بعض امتحانا.ا.هـ. من لطائف الإشارات = تفسير القشيري (١/ ٤٢٨).

فطرة اللّه

وقال: {بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٢٩) فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٠) مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٣١) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٣٢) } (الروم: ٢٩ – ٣٢).

قوله: {بَلِ اتبع الذين ظلموا أَهْوَآءَهُمْ} أي لا يجوز أن يشرك مالك مملوكه ولكن الذين ظلموا أي أشركوا اتبعوا أهواءهم في الشرك {مِنْ غَيْرِ عِلْمٍ} أي من غير دليل جهلاً بما يجب عليهم، ثم بين أن ذلك بإرادة الله بقوله: {فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الله} أي هَؤلاء أَضَلَّهم الله فلا هاديَ لهم فلا يحزنْك قَوْلُهُمْ ثم قال: {وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ} مانعيهم يمنعونهم من عذاب الله – عَزَّ وَجَلَّ –.(٣٠)

وقوله تعالى: {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً.... الآية}، إقامة الوجه: هي تقويم المقصد والقوةِ على الجِدِّ في أعمال الدين. وخص الوجه لأنه جامع حواس الإنسان ولشرفه. وفِطْرَتَ اللَّهِ نَصْبٌ على المصدر. وقيل: بفعل مضمر تقديره: اتبع أو التزم فطرة الله، واختُلِفَ في الفطرة هاهنا، والذي يعتمد عليه في تفسير هذه اللفظةِ أَنها الخِلْقَةُ والهَيْئَةُ التي في نفسِ الطفلِ التي هي مُعَدَّةٌ مُهَيَّئَةٌ لأَنْ يَمِيزَ بها مصنوعات الله، ويستدلَّ بها على ربِّهِ، ويعرف شرائعه ويؤمن به، فكأنه تعالى، قال: أقم وَجْهَك للدِّينِ الذي هو الحنيفُ، وهو فطرة الله الذي على الإعداد له فُطِرَ البشرِ لكن تعرضهم العوارض ومنه قوله صلى الله عليه وسلّم في الحديث الصحيح: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، أَوْ يُنَصِّرَانِهِ... » الحديث «أخرجه البخاري»، وقال البخاريُّ: فِطْرَةُ اللهِ: هِيَ الإِسْلاَمُ ، انتهى. وقوله تعالى: لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ يحتمل أنْ يريدَ بها هذه الفطرةَ، ويحتمل أن يريدَ بها الإنحاء على الكفرة اعترض به أثناء الكلام كأنه يقول: أقم وجهَك للدين الذي من صفته كذا وكذا، فإنَّ هؤلاءِ الكفرة قد خلق الله لهم الكفر، ولا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ، أي: أنهم لا يفلحون، وقيل غيرُ هذا، وقال البخاري: لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ أي:

لدين الله، وخُلُق الأولين: دينهم. انتهى. والْقَيِّمُ بناءُ مبَالَغَةٍ مِنَ القيام الذي هو بمعنى الاستقامة، ومُنِيبِينَ يحتمل أنْ يكونَ حالاً من قوله فَطَرَ النَّاسَ لا سِيَّمَا عَلى رَأْيِ مَنْ رَأَى أَنَّ ذلكَ خصوصٌ في المؤمنين، ويحتمل أن يكون حالا من قوله فَأَقِمْ وَجْهَكَ وجمعه: لأن الخطاب بإقامة الوجه هو للنبي/ صلى الله عليه وسلّم ولأمته

---

٣٠ اللباب في علوم الكتاب (١٥/ ٤٠٨)

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

نظيرها قوله تعالى:{ يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذا طَلَّقْتُمُ النِّساءَ...} (الطلاق: ١). والمشركون المشار إليهم في هذه الآية: هم اليهودُ والنصارى قاله قتادة ، وقيل غير هذا.[٣١]

{فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدّينِ} تمثيلٌ لإقباله على الدِّين واستقامتهِ وثباتِه عليه واهتمامِه بترتيبِ أسبابِه، فإنَّ من اهتمَّ بشيءٍ محسوسٍ بالبصر عقدَ عليه طرفَه وسدَّد إليه نظره وقوَّم له وجهة مُقبلاً به عليه.

والمعنى: أي فقوِّم وجهك له وعدِّله غيرَ ملتفتٍ يميناً وشمالاً {حنيفا} مستقيما عليه. {فِطْرَةَ الله} والفطرةُ الخلِقةُ، والمعنى أي الزموا أو عليكم فطرةَ الله. فإن الخطاب للكل كما يفصحُ عنه قولُه تعالى {منيبين}، والمرادُ بلزومِها الجريانُ على موجبِها وعدمُ الإخلالِ به باتباعِ الهَوَى وتسويلِ الشَّياطينِ.

وقولُه تعالى {التي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا} صفةٌ لفطرةَ الله مؤكدةٌ لوجوبِ الامتثالِ بالأمرِ فإنَّ خلقَ الله النَّاسَ على فطرتِه التي هي عبارةٌ عن قبولِهم للحقَّ وتمكُّنُهم من إدراكِه أو عن ملَّة الإسلامِ من موجباتِ لزومِها والتمسُّك بها قطعاً، فإنَّهم لو خُلُّوا وما خُلقوا عليه أدَّى بهم إلى هذه الفطرة وما اختاروا عليها ديناً آخر، ومن غَوى منهم فبإغواءِ شياطين الإنسِ والجنِّ. ومنه قوله صلى الله عليه وسلم حكايةٌ عن ربَّ العِزَّةِ: "كلَّ عبادِي خلقتُ حنفاءَ فاجتالتْهُم الشياطينُ عن دِينهم وأمرُوهم أنْ يُشركوا بي غيري... الحديث".

وقوله صلى الله عليه وسلم:" كلُّ مولودٍ يُولد على الفطرةِ حتَّى يكونَ أَبَواه هُما اللذانِ يهوِّدانه ويُنصِّرانِه...الحديث".

---

٣١ تفسير الثعالبي = الجواهر الحسان في تفسير القرآن (٤/ ٣١٢)

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وقولُه تعالى {لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ} تعليلٌ للأمرِ بلزومِ فطرتِه تعالَى أو لوجوبِ الامتثالِ به أي لا صَّحةَ ولا استقامةَ لتبديلةِ بالإخلالِ بموجبِه وعدمِ ترتيبِ مقتضاهُ عليه باتِّباعِ الهوَى وقبولِ وسوسةِ الشَّيطانِ.

وقيل: لا يقدِرُ أحدٌ على تبديلِ نفسِ الفطرةِ بإزالتِها رأساً ووضعِ فطرةٍ أُخرى مكانَها غيرِ مصححةٍ لقبولِ الحقِّ والتمكنِ من إدراكِه من جهة أنَّ سلامة الفطرةِ متحققةٌ في كلِّ أحدٍ فلا بدَّ من لزومِها بترتيبِ مُقتضاها عليها وعدمُ الإخلالِ به.

{ذلك} إشارةٌ إلى الدِّين المأمورِ بإقامةِ الوجهِ له أو إلى لزومِ فطرةِ الله {الدين القيم} المستوِي الذي لا عِوَجَ فيه {ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَعْلَمُونَ} ذلكَ فيصدُّون عنه صُدوداً.[٣٢]

أنواع الْخطاب بِالْقُرْآنِ

يقول العلامة ابن الجوزي[٣٣]: الْخطاب فِي الْقُرْآن على خَمْسَة عشر وَجها:

١ - خطاب عَام {يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا.. الآية} [النساء: ١] فالخطاب عام للناس جميعا..

٢ - وخطاب خَاص { يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (١٠٦) } [آل عمران: ١٠٦] هو خطاب خاص بالذين اسودت وجوههم بكفرهم..

---

٣٢ تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (٧/ ٦٠)

٣٣ المدهش (ص: ١٥)

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

٣ – وخطاب الْجِنْس {يَا أَيهَا النَّاس}

٤ – وخطاب النَّوْع {يَا بني آدم}

٥ – وخطاب الْعين {يَا آدم}

٦ – وخطاب الْمَدْح {يَا أَيهَا الَّذين آمنُوا}

٧ – وخطاب الذَّم {يَا أَيهَا الَّذين كفرُوا}

٨ – وخطاب الْكَرَامَة {يَا أَيهَا النَّبِي}

٩ – وخطاب التودد {قَالَ ابْن أم إِن الْقَوْم}

١٠ – وخطاب الْجمع بِلَفْظ الْوَاحِد {يَا أَيهَا الْإِنْسَان مَا غَرَّك}

١١ – وخطاب الْوَاحِد بِلَفْظ الْجمع {وَإِن عَاقَبْتُمْ}

١٢ – وخطاب الْوَاحِد بِلَفْظ الِاثْنَيْنِ {ألقيا فِي جَهَنَّم}

١٣ – وخطاب الِاثْنَيْنِ بِلَفْظ الْوَاحِد {فَمن رَبكُمَا يَا مُوسَى}

١٤ – وخطاب الْعين وَالْمرَاد بِهِ الْغَيْر {فَإِن كنت فِي شكّ}

١٥ – وخطاب التلو وَهُوَ ثَلَاثَة أوجه أَحدهَا أَن يُخَاطب ثمَّ يخبر {حَتَّى إِذا كُنْتُم فِي الْفلك وجرين بهم بريح} {وَمَا آتيتم من زَكَاة تُرِيدُونَ وَجه الله فَأُولَئِك هم المضعفون} {وَكره إِلَيْكُم الْكفْر والفسوق والعصيان أُولَئِكَ هم الراشدون}

وَالثَّانِي أَن يخبر ثمَّ يُخَاطب {فَأَما الَّذين اسودت وُجُوههم أكفرتم} {وسقاهم رَبهم شرابًا طهُورا إِن هَذَا كَانَ لكم جَزَاء وَكَانَ سعيكم مشكورا}وَالثَّالِث أَن يُخَاطب عينا

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ثمَّ يصرف الْخطاب إِلَى الْغَيْر {إِنَّا أَرْسَلْنَاك شَاهدا وَمُبشرا وَنَذِيرا لتؤمنوا بِاللَّه وَرَسُوله} وَهَذَا على قِرَاءَة ابْن كثير وَأبي عَمْرو فانهما قرءا بِالْيَاءِ.

ومن لم يحكم بما أنزل الله

" إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ (٤٤ المائدة)"

وقوله تعالى: " إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ..." الآية،.... و «الهدى»: الإرشاد في المعتقد والشرائع، و «النور»: ما يستضاء به من أوامرها ونواهيها، " والنَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا" هم من بُعث من لدن موسى بن عمران إلى مدة محمد صلى الله عليه وسلم، و" أَسْلَمُوا" معناه أخلصوا وجوههم ومقاصدهم لله تعالى. وقوله تعالى: " لِلَّذِينَ هادُوا " متعلق ب يَحْكُمُ أي يحكمون بمقتضى التوراة لبني إسرائيل وعليهم. وقوله تعالى: "الرَّبَّانِيُّونَ" عطف على «النبيين» أي ويحكم بها الربانيون وهم العلماء، وفي البخاري قال «الرباني» الذي يربي الناس بصغار العلم قبل كباره، وقيل «الرباني» منسوب إلى الرب أي عنده العلم بربه وبدينه، وزيدت النون في «رباني» مبالغةً، والأحبار أيضا العلماء واحدهم حبر بكسر الحاء، ويقال بفتحها وكثر استعمال الفتح فيه للفرق بينه وبين الحبر الذي يكتب به... قال القاضي أبو محمد:...، والرواية الصحيحة أن ابني صوريا وغيرهم جحدوا أمر الرجم وفضحهم فيه عبد الله بن سلام،... وقوله تعالى: " بِمَا اسْتُحْفِظُوا" أي بسبب استحفاظ الله تعالى إياهم أمر التوراة وأخذه العهد عليهم في العمل والقول بها وعرفهم ما فيها فصاروا شهداء عليه، وهؤلاء ضيعوا لما استحفظوا حتى تبدلت التوراة، والقرآن بخلاف هذا لقوله

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

تعالى:" وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ "(الحجر: ٩) والحمد لله. وقوله تعالى:" فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ" حكاية ما قيل لعلماء بني إسرائيل. وقوله: " وَلا تَشْتَرُوا بِآياتِي ثَمَناً قَلِيلًا" نهي عن جميع المكاسب الخبيثة بالعلم والتحيل للدنيا بالدين. وهذا المعنى بعينه يتناول علماء هذه الأمة وحكامها، ويحتمل أن يكون قوله:" فلا تخشوا الناس" إلى آخر الآية خطابا لأمة محمد صلى الله عليه وسلم واختلف العلماء في المراد بقوله تعالى: " وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْكافِرُونَ" فقالت جماعة: المراد اليهود بالكافرين والظالمين والفاسقين، وروي في هذا حديث عن النبي صلى الله عليه وسلم من طريق البراء بن عازب. وقالت جماعة عظيمة من أهل العلم الآية متناولة كل من لم يحكم بما أنزل الله. ولكنه في أمراء هذه الأمة كفر معصية لا يخرجهم عن الإيمان. وقيل لحذيفة بن اليمان أنزلت هذه الآية في بني إسرائيل؟ فقال: نعم الإخوة لكم بنو إسرائيل؛ أن كان لكم كل حلوة، ولهم كل مرة.. لتسلكن طريقهم قدّ الشراك (أى نفع هذه الأمة ما حكاه القرآن عنهم لتتعظ بأخطائهم، فقد ذاقوا ويلات التجربة والخطأ ولنا الاتعاظ، ولكننا مع ذلك نحذو حذو طريقهم نعلا بنعل). وقال الشعبي: نزلت الْكافِرُونَ في المسلمين، والظَّالِمُونَ في اليهود، والْفاسِقُونَ في النصارى.

قال القاضي أبو محمد: ولا أعلم بهذا التخصيص وجها إلا إن صح فيه حديث عن النبي صلى الله عليه وسلم إلا أنه راعى من ذكر مع كل خبر من هذه الثلاثة فلا يترتب له ما ذكر في المسلمين إلا على أنهم خوطبوا بقوله: " فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ " وقال إبراهيم النخعي: نزلت هذه الآيات في بني إسرائيل ثم رضي لهذه الأمة بها.[٣٤]

---

٣٤ تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٢/ ١٩٥)بتصرف يسير وحذف.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

إنا نحن نزلنا الذكر

قوله تعالى: { إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩)} (الحجر: ٩)، و سياق الآيات يجيبنا عن أولئك المارقين الذي يريدون سلب الدين (القرآن والسنة) خاصية (الربانية) باستهزائهم وألاعيبهم...

وقوله تعالى: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ}

رد لإنكارهم واستهزائهم في قولهم {يا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ}؛ ولذلك قال: {إنا نحن}، فأكد عليهم أنه هو سبحانه المنزِّل على القطع والبتات، وأنه هو الذي بعث به جبريل إلى محمد صلى الله عليه وسلم وبين يديه ومن خلفه رصدٌ يحفظونه، حتى نزل الذكر وبُلِّغ محفوظا من الشياطين، وهو حافظه في كل وقت من كل زيادة ونقصان وتحريف وتبديل، بخلاف الكتب المتقدمة، فإنه لم يتول حفظها. وإنما استحفظها الربانيين والأحبار فاختلفوا فيما بينهم بغياً فكان التحريف، ولم يكل القرآن إلى غير حفظه تعالى.[٣٥]

قوله تعالى: «إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ» هو ردّ على هؤلاء المشركين الذين سخروا من النبيّ بقولهم: «يا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ» فجاء قوله تعالى: «إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ» كبتا لهؤلاء المشركين، وردعا لهم، وإعلانا بما يملأ صدورهم حسدا وحسرة.. فقد أبوا إلا أن يجهلوا الجهة التي يقول النبيّ إنه تلقّى الذّكر منها، فقالوا «نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ» ولم يقولوا- ولو على سبيل الاستهزاء- نزّل الله عليه الذكر.. فجاءهم قول الحق جلّ وعلا: «إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ» بهذا التوكيد القاطع.. ثم جاء قوله تعالى «وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ» مؤكدا لهذا التوكيد.. إذ أنه سبحانه هو الذي يتولى حفظه من كل عبث، وصيانته من كل سوء.. وهذا هو الدليل القاطع على

---

٣٥ تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (٢/ ٥٧٢)

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

أنه منزَّل من عند الله.. فليحاولوا أن يبدّلوا من صورته، أو يدسّوا عليه ما ليس منه.. فإنهم لو فعلوا، لكان لهم من ذلك حجة على أن ليس من عند الله! وقد حفظ الله القرآن الكريم، هذا الحفظ الربانىّ، الذي أبعد كلّ ريبة أو شكّ فى هذا الكتاب، فلم تمسسه يدٌ بسوء، على كثرة الأيدى التي حاولت التحريف والتعديل، فردّها الله، وأبطل كيدها وتدبيرها.. وهكذا ظلّ القرآن الكريم، وسيظل إلى يوم البعث، حِمَى الله الذي تحرسه عنايته، وتحفظه قدرته، فلم تنخرم منه كلمة، أو يتبدل منه حرف.. وتلك حقيقة يعلمها أولو العلم من خصوم الإسلام، كما يؤكدها تاريخ القرآن الكريم، الذي تولّى النبىّ الأمى كتابته فى الصحف، كما تولّى غرسه فى صدور المؤمنين.. كلمة كلمة، وآية آية..

سئل بعض العلماء: لم جاز التحريف والتبديل على الكتب السماوية السابقة، ولم يجز هذا على القرآن الكريم؟ فقال: «إن الكتب السماوية السابقة قد وكل الله حفظها إلى أهلها، كما يقول الله تعالى: «إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْراةَ فِيها هُدىً وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتابِ اللَّهِ وَكانُوا عَلَيْهِ شُهَداءَ» (٤٤: المائدة). فأهل الكتاب هم الذين «استحفظوا» أي وكّلوا بحفظ كتبهم.. ومن هنا جاز أن يفرطوا فى هذه الأمانة التي فى أيديهم، وأن يدخل عليها ما دخل من تبديل وتحريف.. أما القرآن الكريم فقد تولّى الله سبحانه وتعالى حفظه، ولم يكله إلى أهله.. فقال تعالى: «إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ»..

ومن ثمّ كان من المستحيل أن يدخل على القرآن الكريم- وهو فى حراسة الله- تغيير كلمة، أو تبديل حرف!!.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

والسؤال هنا: لم وكل الله سبحانه وتعالى حفظ الكتب السماوية السابقة إلى أهلها، ولم يتولّ سبحانه وتعالى حفظها، وهى من كلماته، كما تولّى ذلك سبحانه، بالنسبة للقرآن الكريم؟.

والجواب على هذا، والله أعلم:

أولا: أن الكتب السماوية السابقة مرادة لغاية محدودة، ولوقت محدود، وذلك إلى أن يأتى القرآن الكريم، الذي هو مجمع هذه الكتب، والمهيمن عليها.. وهو بهذا التقدير الرسالة السماوية إلى الإنسانية كلها فى جميع أوطانها وأزمانها.. فلو أن الكتب السماوية السابقة، كان لها هذا الحفظ من الله سبحانه، لما دخلها هذا التحريف والتبديل، ومن ثمّ لم يكن للقرآن الكريم هيمنة عليها، ولم يكن ناسخا لها.. الأمر الذي أراد الله سبحانه وتعالى للقرآن الكريم أن يجىء له.

فهذا التبديل والتحريف الذي أدخله أهل الكتب السابقة على كتبهم، لا يدخل منه شىء على آيات الله وكلماته الخاتمة للبشرية كلها إلى يوم القيامة.. كما لم يدخل شىء من ذلك على آياته الكونية، التي يغوى بها الغاوون، وينحرف بها المنحرفون..

وكما لا يدخل شىء من النقص على ذاته الكريمة، أو صفاته وكمالاته، إذا جدّف المجدفون على الله، ونظروا إلى ذاته وصفاته بعيون مريضة، وقلوب فاسدة، وعقول سقيمة.[٣٦]

---

٣٦ التفسير القرآني للقرآن للدكتور عبد الكريم الخطيب بتصرف (٧/ ٢١٨)

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

قوله تعالى " أقم الصلاة لذكري "

وَظَاهِرُ الْأَمْرِ الْوُجُوبُ وَالْغَفْلَةُ تُضَادُّ الذِّكْرَ فَمَنْ غَفَلَ فِي جَمِيعِ صَلَاتِهِ كَيْفَ يَكُونُ مُقِيمًا لِلصَّلَاةِ لِذِكْرِهِ سبحانه؟

يقول تَعَالَى " وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ (الأعراف٢٠٥)" وهذا نهي وظاهره التحريم.. يقول عز وجل " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ"(النساء ٤٣) تَعْلِيلٌ لِنَهْيِ السَّكْرَانِ، وَهُوَ مُطَّرِدٌ فِي الْغَافِلِ الْمُسْتَغْرِقِ الْهَمَّ بِالْوَسْوَاسِ وَأَفْكَارِ الدُّنْيَا... وَصَلَاةُ الْغَافِلِ لَا تَمْنَعُ مِنَ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ، وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "كَمْ مِنْ قَائِمٍ حَظُّهُ مِنْ صَلَاتِهِ التَّعَبُ وَالنَّصَبُ" [٣٧]، وَمَا أَرَادَ بِهِ إِلَّا الْغَافِلَ.

وَالتَّحْقِيقُ فِيهِ أَنَّ الْمُصَلِّيَ مُنَاجٍ رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ [٣٨] كَمَا وَرَدَ بِهِ الْخَبَرُ وَالْكَلَامُ مَعَ الغفلة ليس بمناجاة ألبتة، وبيانه أن الزكاة وإن غفل الإنسان عنها مثلاً فهي في نفسها مخالفة للشهوة شديدة على النفس، وكذا الصوم قاهر للقوى كاسر لسطوة الهوى الذي هو آلة للشيطان عدو الله فيبعد أن يحصل منها مقصود مع الغفلة، وكذلك الحج أفعاله شاقة شديدة وفيه من المجاهدة ما يحصل به الإيلام؛ سواء كان القلب حاضراً مع أفعاله أو لم يكن.

---

٣٧ قال العراقي في تخريج أحاديث الإحياء: أخرجه النسائي من حديث أبي هريرة "رب قائم ليس له من قيامه إلا السهر"، ولأحمد: "رب قائم حظه من صلاته السهر"، وإسناده حسن.

٣٨ حديث "المصلي يناجي ربه" متفق عليه من حديث أنس.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

أما الصلاة فليس فيها إلا ذكر وقراءة وركوع وسجود وقيام وقعود، فأما الذكر فإنه مناجاة مع الله عز وجل فأما أن يكون المقصود منه كونه خطاباً ومحاورة أو المقصود منه الحروف والأصوات امتحانا للسان بالعمل كما تمتحن المعدة والفرج بالإمساك في الصوم وكما يمتحن البدن بمشاق الحج ويمتحن بمشقة إخراج الزكاة واقتطاع المال المعشوق، ولا شك أن هذا القسم باطل فإن تحريك اللسان بالهذيان ما أخفه على الغافل فليس فيه امتحان من حيث أنه عمل بل المقصود الحروف من حيث أنه نطق ولا يكون نطقاً إلا إذا أعرب عما في الضمير ولا يكون معرباً إلا بحضور القلب فأي سؤال في قوله " اهدنا الصراط المستقيم" إذا كان القلب غافلاً؛ وإذا لم يقصد كونه تضرعاً ودعاء، فأي مشقة في تحريك اللسان به مع الغفلة لا سيما بعد الاعتياد.. هذا حكم الأذكار بل أقول لو حَلَفَ الْإِنْسَانُ وَقَالَ لَأَشْكُرَنَّ فُلَانًا وَأُثْنِي عَلَيْهِ وَأَسْأَلُهُ حَاجَةً ثُمَّ جَرَتِ الْأَلْفَاظُ الدَّالَّةُ عَلَى هَذِهِ الْمَعَانِي عَلَى لِسَانِهِ فِي النَّوْمِ لَمْ يَبَرَّ فِي يَمِينِهِ وَلَوْ جَرَتْ عَلَى لِسَانِهِ فِي ظُلْمَةٍ وَذَلِكَ الْإِنْسَانُ حَاضِرٌ وَهُوَ لَا يَعْرِفُ حُضُورَهُ وَلَا يَرَاهُ لَا يَصِيرُ بَارًّا فِي يَمِينِهِ إذْ لَا يَكُونُ كَلَامُهُ خِطَابًا وَنُطْقًا مَعَهُ مَا لَمْ يَكُنْ هُوَ حَاضِرًا فِي قَلْبِهِ فَلَوْ كَانَتْ تَجْرِي هَذِهِ الْكَلِمَاتُ عَلَى لِسَانِهِ وَهُوَ حَاضِرٌ إلَّا أَنَّهُ فِي بَيَاضِ النَّهَارِ غَافِلٌ لِكَوْنِهِ مُسْتَغْرِقَ الْهَمِّ بِفِكْرٍ من الأفكار ولم يكن له قصد توجيه الْخِطَابُ إلَيْهِ عِنْدَ نُطْقِهِ لَمْ يَصِرْ بَارًّا في يمينه

ولا شك أَنَّ الْمَقْصُودَ مِنَ الْقِرَاءَةِ وَالْأَذْكَارِ الْحَمْدُ وَالثَّنَاءُ وَالتَّضَرُّعُ وَالدُّعَاءُ وَالْمُخَاطَبُ هُوَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وقلبه بِحِجَابِ الْغَفْلَةِ مَحْجُوبٌ عَنْهُ فَلَا يَرَاهُ وَلَا يشاهده بل هو غافل عن المخاطب ولسانه يَتَحَرَّكُ بِحُكْمِ الْعَادَةِ فَمَا أَبْعَدَ هَذَا عَنِ الْمَقْصُودِ بِالصَّلَاةِ الَّتِي شُرِعَتْ لِتَصْقِيلِ الْقَلْبِ وَتَجْدِيدِ ذِكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَرُسُوخِ عَقْدِ الْإِيمَانِ به هذا حكم القراءة والذكر

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وأما الركوع والسجود فالمقصود بهما التعظيم قطعاً ولو جاز أن يكون معظماً لله عز وجل بفعله وهو غافل عنه لجاز أن يكون معظماً لصنم موضوع بين يديه وهو غافل عنه أو يكون معظماً للحائط الذي بين يديه وهو غافل عنه وإذا خرج عن كونه تعظيماً لم يبق إلا مجرد حركة الظهر والرأس وليس فيه من المشقة ما يقصد الامتحان به ثم يجعله عماد الدين والفاصل بين الكفر والإسلام ويقدم على الحج وسائر العبادات ويجب القتل بسبب تركه على الخصوص وما أرى أن هذه العظمة كلها للصلاة من حيث أعمالها الظاهرة إلا أن يضاف إليها مقصود المناجاة فإن ذلك يتقدم على الصوم والزكاة والحج وغيره بل الضحايا والقرابين التي هي مجاهدة للنفس بتنقيص المال قال الله تعالى" لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يناله التقوى منكم" أي الصفة التي استولت على القلب حتى حملته على امتثال الأوامر هي المطلوبة فكيف الأمر في الصلاة ولا أرب في أفعالها فهذا ما يدل من حيث المعنى على اشتراط حضور القلب. [٣٩]

---

٣٩ إحياء علوم الدين (١/ ١٥٩)

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وان هذا صراطي مستقيما

{وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٥٣) } (الأنعام: ١٥٣).

والإشارة فيه إلى ما ذكر في السورة فإنها بأسرها في إثبات التوحيد والنبوة وبيان الشريعة.[٤٠] ذلك أنه تعالى لما بين في الآيتين المتقدمين ما وصى به أجمل في آخره إجمالا يقتضي دخول ما تقدم فيه ودخول سائر الشريعة فيه فقال: {وأن هذا صراطي مستقيما}؛ فدخل فيه كل ما بينه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم من دين الإسلام وهو المنهج القويم والصراط المستقيم فاتبعوا جملته وتفصيله ولا تعدلوا عنه فتقعوا في الضلالات..[٤١] {وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ} أى الأديان المختلفة أو الطرق التابعة للهوى، فإن مقتضى الحجة واحد ومقتضى الهوى متعدد لاختلاف الطبائع والعادات. {فَتَفَرَّقَ بِكُمْ} فتفرقكم وتزيلكم. {عَنْ سَبِيلِهِ} الذي هو اتباع الوحي واقتفاء البرهان. {ذلِكُمْ} الاتباع. {وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} الضلال والتفرق عن الحق.[٤٢]

وقد ورد في الحديث الصحيح عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم: أنه خط خطا ثم قال: هذا سبيل الرشد، ثم خط عن يمينه وعن شماله خطوطا ثم قال: هذه سبل، على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه»، ثم تلا هذه الآية {وَأَنَّ هذا صِراطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ}.رواه النسائي والحاكم وابن حبان.

---

٤٠ تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل (٢/ ١٨٩)

٤١ تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (١٤/ ١٨٥)

٤٢ تفسير البيضاوي (٢/ ١٨٩)

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

تدبر قوله تعالى { وقال الشيطان لما قضى الأمر... الآية}

{ وبرزوا لله جميعا فقال الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء قالوا لو هدانا الله لهديناكم سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص (٢١) وقال الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي إني كفرت بما أشركتموني من قبل إن الظالمين لهم عذاب أليم } (سورة إبراهيم ٢٢)

قال الشوكاني في فتح القدير ما مختصره:

فقال: وبرزوا لله جميعا، فمعنى " برزوا " ظهروا من قبورهم.

" فقال الضعفاء للذين استكبروا" أي: قال الأتباع الضعفاء للرؤساء الأقوياء المتكبرين لما هم فيه من الرياسة " إنا كنا لكم تبعا" أي في الدنيا، فكذبنا الرسل وكفرنا بالله متابعةً لكم، والتبع جمع تابع، قال الزجاج: جمعهم في حشرهم فاجتمع التابع والمتبوع، فقال الضعفاء للذين استكبروا من أكابرهم عن عبادة الله إنا كنا لكم تبعا جمع تابع مثل خادم وخدم.. " فهل أنتم مغنون عنا " أي دافعون عنا من عذاب الله، " قالوا لو هدانا الله لهديناكم" أي قال المستكبرون مجيبين عن قول المستضعفين لو هدانا الله إلى الإيمان لهديناكم إليه، وقيل: لو هدانا الله إلى طريق الجنة لهديناكم إليها، وقيل: لو نجانا الله من العذاب لنجيناكم منه.." سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص " أي مستوٍ علينا الجزع والصبر، "ما لنا من محيص" أي: من منجا ومهرب من العذاب.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

"وقال الشيطان لما قضي الأمر" أي: لما دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار " إن الله وعدكم وعد الحق" وهو وعده سبحانه بالبعث والحساب، ومجازاة المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته..

" ووعدتكم فأخلفتكم" أي وعدتكم وعدا باطلا، بأنه لا بعث ولا حساب ولا جنة ولا نار، فأخلفتكم ما وعدتكم به من ذلك.

"وما كان لي عليكم من سلطان" أي تسلط عليكم بإظهار حجة على ما وعدتكم به وزينته لكم.. " إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي" أي إلا مجرد دعائي لكم إلى الغواية والضلال بلا حجة ولا برهان فسارعتم إلى إجابتي، وقيل: المراد بالسلطان هنا القهر، أي: ما كان لي عليكم من قهر يضطركم إلى إجابتي، " فلا تلوموني" بما وقعتم فيه بسبب وعدي لكم بالباطل وإخلافي لهذا الموعد.. "ولوموا أنفسكم" باستجابتكم لي بمجرد الدعوة التي لا سلطان عليها ولا حجة، فإن من قبل المواعيد الباطلة والدعاوى الزائغة عن طريق الحق فعلى نفسه جنى، ولا سيما ودعوتي هذه الباطلة وموعدي الفاسد وقعا معارضين لوعد الله لكم وعد الحق ودعوته لكم إلى الدار السلام مع قيام الحجة التي لا تخفى على عاقل ولا تلتبس إلا على مخذول.

وقريب من هذا مَن يقتدي بآراء الرجال المخالفة لما في كتاب الله سبحانه، ولما في سنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ويفضلها على ما فيهما، فإنه قد استجاب للباطل الذي لم تقم عليه حجة ولا دل عليه برهان، وترك الحجة والبرهان خلف ظهره كما يفعله كثير من المقتدين بالرجال المتنكبين طريق الحق بسوء اختيارهم، اللهم غفرانك.

" ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي": ما أنا بمغيثكم مما أنتم فيه من العذاب، وما أنتم بمغيثي مما أنا فيه، وفيه إرشاد لهم إلى أن الشيطان في تلك الحالة مبتلى بما ابتلوا

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

به من العذاب محتاج إلى من يغيثه ويخلصه مما هو فيه، فكيف يطمعون في إغاثة من هو محتاج إلى من يغيثه ؟

" إني كفرت بما أشركتموني من قبل":

قال العلامة الشوكاني: لما كشف لهم القناع بأنه لا يغني عنهم من عذاب الله شيئا، ولا ينصرهم بنوع من أنواع النصر، صرح لهم بأنه كافر بإشراكهم له مع الله في الربوبية من قبل هذا الوقت الذي قال لهم الشيطان فيه هذه المقالة، وهو ما كان منهم في الدنيا من جعله شريكا، ولقد قام لهم الشيطان في هذا اليوم مقاما يقصم ظهورهم ويقطع قلوبهم، فأوضح لهم أولا أن مواعيده التي كان يعدهم بها في الدنيا باطلة معارضة لوعد الحق من الله سبحانه وأنه أخلفهم ما وعدهم من تلك المواعيد ولم يفِ لهم بشيء منها، ثم أوضح لهم ثانيا بأنهم قبلوا قوله بما لا يوجب القبول، ولا يُقبل على عقل عاقل لعدم الحجة التي لا بد للعاقل منها في قبول قول غيره، ثم أوضح ثالثا بأنه لم يكن منه إلا مجرد الدعوة العاطلة عن البرهان الخالية عن أيسر شيء مما يتمسك به العقلاء، ثم نعى عليهم رابعا ما وقعوا فيه، ودفع لومهم له وأمرهم بأن يلوموا أنفسهم، لأنهم هم الذين قبلوا الباطل البحت الذي لا يلتبس بطلانه على من له أدنى عقل، ثم أوضح لهم خامسا بأنه لا نصر عنده ولا إغاثة ولا يستطيع لهم نفعا ولا يدفع عنهم ضرا، بل هو مثلهم في الوقوع في البلية والعجز عن الخلوص عن هذه المحنة.. ثم صرح لهم سادسا بأنه قد كفر بما اعتقدوه فيه وأثبتوه له، فتضاعفت عليهم الحسرات وتوالت عليهم المصائب، وإذا كان جملة " إن الظالمين لهم عذاب أليم" من تتمة كلامه كما ذهب إليه البعض فهو نوع سابع من كلامه الذي خاطبهم به، فأثبت لهم الظلم، ثم ذكر ما هو جزاؤهم عليه من العذاب الأليم، لا على قول من قال: إنه ابتداء كلام من جهة الله سبحانه.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

{ إن ابراهيم كان أمة...}

قال تعالى: "إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٠) شَاكِراً لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٢١) وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٢٢)"سورة النحل.

قوله سبحانه" كَانَ أُمَّةً" فيه وجهان، أحدهما: أنه كان وحده أمّة من الأمم لكماله في جميع صفات الخير.

وعن مجاهد: كان مؤمناً وحده والناس كلهم كفار. والثاني: أن يكون أمّة بمعنى مأموم، أى: يؤمّه الناس ليأخذوا منه الخير، فيكون مثل قوله تعالى " قالَ إِنِّي جاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِماماً"..

عن ابن مسعود أنه قال: إنّ معاذاً كان أمّة قانتاً لله، فقلت: غلطت، إنما هو إبراهيم. فقال: الأمّة: الذي يعلم الخير. والقانت المطيع لله ورسوله ، وكان معاذ كذلك. وعن عمر رضى الله عنه أنه قال- حين قيل له: ألا تستخلف؟ -: لو كان أبو عبيدة حياً لاستخلفته، ولو كان معاذ حيا لاستخلفته. ولو كان سالم حيا لاستخلفته فإنى سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم يقول: «أبو عبيدة أمين هذه الأمّة، ومعاذ أمّة قانت لله، ليس بينه وبين الله يوم القيامة إلا المرسلون، وسالم شديد الحب لله، لو كان لا يخاف الله لم يعصه. وهو ذلك المعنى، أى: كان إماما في الدين، لأنّ الأئمة معلمو الخير.

والقانت: القائم بما أمره الله. والحنيف: المائل إلى ملة الإسلام غير الزائل عنه. ونفى عنه الشرك تكذيبا لكفار قريش في زعمهم أنهم على ملة أبيهم إبراهيم " شاكِراً لِأَنْعُمِهِ " روى أنه كان لا يتغدّى إلا مع ضيف، فلم يجد ذات يوم ضيفاً، فأخر

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

غداءه، فإذا هو بفوج من الملائكة في صورة البشر، فدعاهم إلى الطعام فخيلوا له أنّ بهم جذاماً؟ فقال: الآن وجبت مواكلتكم شكراً لله على أنه عافاني وابتلاكم.

" اجْتَباهُ" اختصه واصطفاه للنبوّة " وَهَداهُ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ" إلى ملة الإسلام

"وآتيناه في الدنيا حَسَنَةً " عن قتادة: هي تنوبه الله بذكره، حتى ليس من أهل دين إلا وهم يتولونه. وقيل: الأموال والأولاد، وقيل: قول المصلى منا: كما صليت على إبراهيم. "لَمِنَ الصَّالِحِينَ" لمن أهل الجنة.

"ثُمَّ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً وَما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٣)"

ثُمَّ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ في «ثم» هذه ما فيها من تعظيم منزلة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإجلال محله، والإيذان بأنّ أشرف ما أوتى خليل الله إبراهيم من الكرامة، وأجلّ ما أولى من النعمة: اتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم ملته، من قِبل أنها دلت على تباعد هذا النعت في المرتبة من بين سائر النعوت التي أثنى الله عليه بها.

قال ابن المنير شارحا تلك النقطة: وإنما تفيد ذلك "ثم " لأنها في أصل وضعها لتراخى المعطوف عليه في الزمان، ثم استعملت في تراخيه عنه في علو المرتبة بحيث يكون المعطوف أعلى رتبة وأشمخ محلا مما عطف عليه، فكأنه بعد أن عدد مناقب الخليل عليه السلام قال تعالى: وهاهنا ما هو أعلى من ذلك كله قدراً وأرفع رتبة وأبعد رفعة، وهو أن النبي الأمى الذي هو سيد البشر متبع لملة إبراهيم، مأمور باتباعه بالوحي، متلو أمره بذلك في القرآن العظيم. ففي ذلك تعظيم لهما جميعا، لكن نصيب النبي صلى الله عليه وسلم من هذا التعظيم أوفر وأكبر على ما مهدناه، والله الموفق للصواب.) ا.هـ. من تفسير الكشاف٢/٦٤١

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

لا يأتيه الباطل

{...وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ (٤١) لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (٤٢)} (فصلت: ٤١، ٤٢)

{وإنه لكتاب عزيز} أي: منيع الجناب، لا يرام أن يأتي أحد بمثله،

{لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه} أي: ليس للبطلان إليه سبيل؛ لأنه منزل من رب العالمين؛ ولهذا قال: {تنزيل من حكيم حميد} أي: حكيم في أقواله وأفعاله، حميد بمعنى محمود، أي: في جميع ما يأمر به وينهى عنه الجميع محمودة عواقبه وغاياته.[٤٣]

قال الرازي: وفي معنى هذه الآية { لا يأتيه الباطل...} وجوه:

الأول: أي لا تكذبه الكتب المتقدمة كالتوراة والإنجيل والزبور، ولا يجيء كتاب من بعده يكذبه.

الثاني: ما حكم القرآن بكونه حقا لا يصير باطلا، وما حكم بكونه باطلا لا يصير حقا.

الثالث: معناه أنه محفوظ من أن يُنقص منه فيأتيه الباطل من بين يديه، أو يزاد فيه فيأتيه الباطل من خلفه. والدليل عليه قوله تعالى: {...وإنا له لحافظون} (الحجر: ٩) فعلى هذا يكون الباطل هو الزيادة والنقصان.

الرابع: يحتمل أن يكون المراد أنه لا يوجد في المستقبل كتاب يمكن جعله معارضا له ولم يوجد فيما تقدم كتاب يصلح جعله معارضا له.

---

٤٣ تفسير ابن كثير ت سلامة (٧/ ١٨٣)

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الخامس: قال صاحب «الكشاف» هذا تمثيل، والمقصود أن الباطل لا يتطرق إليه، ولا يجد إليه سبيلا من جهة من الجهات حتى يتصل إليه.ا.هـ[٤٤]

قال ابن عباس: وَيُقَال لَا يُخَالف الْقُرْآن بعضه بَعْضًا وَلَكِن يُوَافق بعضه بَعْضًا.

ووصفَ اللَّه تعالى الكتابَ بالعِزَّةِ لأنه بصحة معانيه مُمْتَنِعٌ الطَّعْنُ فيه والإزراء عليه، وهو محفوظ من اللَّه تعالى قال ابن عباس:معناه: كريمٌ على اللَّه تعالى.

وقوله تعالى: لاَّ يَأْتِيهِ/ الْباطِلُ قال قتادة والسُّدِّيُّ: يريد: الشيطان، وظاهر اللفظَ يَعُمُّ الشيطان، وأنْ يجيء أمْرٌ يُبْطِلُ منه شَيْئاً.

وقوله: مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ معناه: ليس فيما تقدم من الكتب ما يُبْطِلُ شَيْئاً منه.

وقوله: وَلا مِنْ خَلْفِهِ أي: ليس يأتي بعده من نَظَرِ ناظر وفِكْرَةِ عاقل ما يبطل شيئا منه، والمراد باللفظة على الجملة: لا يأتيه الباطل من جهة من الجهات.[٤٥]

لا يَأْتِيهِ الْباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ أي لا يتطرق إليه البطلان من جهة من الجهات.

قال القاشاني: لا من جهة الحق فيبطله بما هو أبلغ منه وأشد إحكاما في كونه حقا وصدقا. ولا من جهة الخلق فيبطلونه بالإلحاد في تأويله، ويغيرونه بالتحريف لكونه ثابتا في اللوح محفوظا من جهة الحق، كما قال إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (الحجر: ٩)، وفيه تمثيل لتشبيهه بشخص حمي من جميع جهاته. فلا يمكن أعداءه الوصول إليه لأنه في حصن حصين من حماية الحق المبين. هذا على أن ما بين يديه وما خلفه، كناية عن جميع الجهات. كالصباح والمساء كناية عن الزمان كله. أو

---

٤٤ من تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٢٧/ ٥٦٨).

٤٥ تفسير الثعالبي = الجواهر الحسان في تفسير القرآن (٥/ ١٤٣)

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

المعنى: لا يتطرق إليه باطل في كل ما أخبر عنه من الأخبار الماضية والآتية. والماضية ما بين يديه، والآتية ما خلفه. أو العكس كما مرّ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ قال ابن جرير: أي هو تنزيل من عند ذي حكمة، بتدبير عباده وصرفهم فيما فيه مصالحهم، محمود على نعمه عليهم بأياديه عندهم.[٤٦]

والنص يتحدث عن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم ولا يذكر ماذا هم ولا ماذا سيقع لهم. فلا يذكر الخبر: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جاءَهُمْ..» كأنما ليقال: إن فعلتهم لا يوجد وصف ينطبق عليها ويكافئها لشدة بشاعتها! لذلك يترك النص خبر «إِنَّ» لا يأتي به ويمضي في وصف الذكر الذي كفروا به لتفظيع الفعلة وتبشيعها: «وَإِنَّهُ لَكِتابٌ عَزِيزٌ لا يَأْتِيهِ الْباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ. تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ»..

وأني للباطل أن يدخل على هذا الكتاب. وهو صادر من الله الحق. يصدع بالحق. ويتصل بالحق الذي تقوم عليه السماوات والأرض؟

وأنى يأتيه الباطل وهو عزيز. محفوظ بأمر الله الذي تكفل بحفظه فقال: «إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ».

والمتدبر لهذا القرآن يجد فيه ذلك الحق الذي نزل به، والذي نزل ليقره. يجده في روحه ويجده في نصه.

يجده في بساطة ويسر. حقا مطمئنا فطريا، يخاطب أعماق الفطرة، ويطبعها ويؤثر فيها التأثير العجيب.

---

٤٦ تفسير القاسمي = محاسن التأويل (٨/ ٣٤٣)

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وهو «تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ».. والحكمة ظاهرة في بنائه، وفي توجيهه، وفي طريقة نزوله، وفي علاجه للقلب البشري من أقصر طريق. والله الذي نزله خليق بالحمد. وفي القرآن ما يستجيش القلب لحمده الكثير.(٤٧)

ولما كان من معاني العزة في القرآن أنه ممتنع بمتانة رصفه وجزالة نظمه وجلالة معانيه من أن يلحقه تغيير ما، بيَّن ذلك بقوله: {لا يأتيه الباطل} أي البين البطلان إتيان غلبةٍ فيصير أو شيء منه باطلاً بيّنا، ولما كان المراد تعميم النفي، لا نفي العموم، أدخل الجار فقال: {من بين يديه} أي سواء كان حكماً أو خبراً لأنه في غاية الحقية والصدق، والحاصل أنه لا يأتيه الباطل من جهةٍ من الجهات، لأن ما قدام أوضح ما يكون، وما خلف أخفى ما يكون، فما بين ذلك من باب الأوْلى، فالعبارة كناية عن ذلك لأن كلام الله لا وراء له ولا أمام على الحقيقة، ونحوه مما تفهم العرب ومن علم لسانها المراد به دون لبس، ثم علل ذلك بقوله: {تنزيل} أي بحسب التدريج لأجل المصالح {من حكيم} بالغ الحكمة فهو يضع كل شيء منه في أتم محاله في وقت النزول وسياق النظم {حميد *} أي بالغ الإحاطة بأوصاف الكمال من الحكمة وغيرها والتنزه والتطهر والتقدس عن كل شائبة نقصٍ، يحمده كل خلق بلسان حاله إن لم يحمده بلسان مقاله، بما ظهر عليه من نقصه أو كماله، والخبر محذوف تقديره: خاسرون لا محالة لأنهم لا يقدرون على شيء مما يوجهونه إليه من الطعن لأنهم عجزة ضعفاء صَغَرة كما قال المعري:

أرى الجوزاء تكبر أن تصادا... فعاند من تطيق له عنادا

وحذف الخبر أهول لتذهب النفس كل مذهب.(٤٨)

---

٤٧ في ظلال القرآن (٥/ ٣١٢٦)

٤٨ نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (١٧/ ٢٠١)

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

{ وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت}

سورة العنكبوت وأوهن البيوت

تقوم أُنثى العنكبوت بقتل الذكر بعد التلقيح و تلقيه خارج البيت..

وبعد أن يكبر الاولاد يقومون بقتل الأم و إلقائها خارج المنزل..

بيت عجيب من أسوأ البيوت على الإطلاق.

لقد وصفها القرآن بآية واحدة..

{وإنّ أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون }

سبحان الله !!!

لقد كان الناس يعلمون مدى الوهن في البيت الحسي للعنكبوت لكنهم لم يدركو الوهن المعنوي الا في هذا العصر...!! وبالتالي جاءت الآية: لو كانو يعلمون !!

ومع ذلك يسمي الله تعالى سورة باسم هذه الحشرة السيئة الصيت ويتكلم عنها في آية

مع أنّ السورة تتحدث من أولها لآخرها عن الفتن؟

البداية كانت (أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون) و(و من الناس من يقول آمنا بالله فإذا أوذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله)

قد يتبادر للذهن ما علاقة الفتن بالعنكبوت؟

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الجواب:إنّ تداخل الفتن يشبه خيوط العنكبوت..

فالفتن متشابكة و متداخلة فلا يستطيع المرء أن يميز بينها و هي كثيرة و معقدة و لكنها هشة و ضعيفة إذا استعنا بالله..

"اللهم جنبنا الفتن ما ظهر منها و ما بطن"

... سئل أحد العلماء

مالذي أوصل حال المسلمين إلى هذه الدرجة من الذل والهوان وتكالب الأعداء ؟؟؟

فرد:عندما فضلنا الثمانية على الثلاثة

فسئل: ماهي الثمانية ؟

وماهي الثلاثة؟

فأجاب: إقرؤها في قوله تعالى

((قل إن كان

١. آباؤكم

٢. وأبنائكم

٣. وإخوانكم

٤. وأزواجكم

٥. وعشيرتكم

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

٦. وأموال إقترفتموها

٧. وتجارة تخشون كسادها

٨. ومساكن ترضونها

أحب إليكم من:

١. الله،

٢. ورسوله،

٣. وجهاد في سبيله

فتربصوا حتى يأتي الله بأمره، والله لا يهدي القوم الفاسقين }.

تستحق التأمل

{ يا أيها الناس... } ونظرة موضوعية.

في عشرين آية في كتاب الله ياتي الخطاب الإلهى العام للناس جميعاً.. ليؤكد عالمية هذا الدين وكونه النور الرباني الأخير لهذا العالم الحائر...نداءات ربانيةٌ حانيةٌ عظيمة يكتنفها الجلال لبني آدم ترشدهم للحقيقة العليا التي لا مناص منها.. حقيقة وجود هذه الحياة وهذا الإنسان؛ وأنه أعز مخلوق عند ربه تعالى الذي خلقه فسواه فعدله ثم سخر له الكون وعلمه أسماء كل شئ وأسجد له ملائكته.. ثم شرفه غاية التشريف حيث أمره بعبادته ليكون في كنفه وفي في الدنيا وفي مستقر رحمته وثوابه في

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الاخرة، ولكن الشيطان اللعين تربص لآدم وذريته بعدما رفض السجود له استكبارا وجحودا لقيمته في الحياة.. وأقسم ليغوين بني آدم ويهلكهم كما هلك.. وهنا يأتينا النور الرباني العظيم ليبين لنا تلك الحقائق الجوهرية ويبعث برسائل عامة وقوية لبني الإنسان جميعاً:

أعبدوا ربكم الذي خلقكم وكرَّمكم وهداكم واصطفاكم على خلقه.. خلقكم من تراب وخلقكم نطفة هينة ضعيفة فعلقة فمضغةٍ وارتقى بكم اطواراً من ضعف لضعفٍ يرعاكم بعلمه وحكمته وقدره ورزقه الذي يحوطكم به.. فكلوا مما في الأرض التي سخرها لكم الحلال ولا تتبعوا الحرام والباطل..اتقوا ربكم في نسائكم وأرحامكم وعلاقاتكم البشرية فأنتم من نفس واحدة خلقكم الله شعوبا وقبائل لتتعارفوا وتتكاملوا لا (لصراع الحضارات) والتنابذ والموت والعداوات.. لا يهلكنكم الشيطان فهو عدوكم اللدود والذي لا تتغير عداوته أبدا وهو ينتظركم بكل طريق فلا تتبعوا خطواته.. لقد جاءكم الرسول الخاتم – وهو رسول الله إليكم جميعا – بالدين الخاتم والشريعة الكاملة والنور المبين من كلام الله سبحانه فآمنوا بالله ورسله وكلماته لأن ذلك نجاتكم.. لقد جاءتكم البراهين والبينات والمعجزات والدلالات على دين الله وصدق أنبيائه وشمولية دين محمد عليه الصلاة والسلام.. فمن كفر بعد ذلك فإن الله غنى عن العالمين..لا يغركم الشيطان بكيده، وتغركم الدنيا بزخرفها الزائل، أو تغركم قوتكم الزائفة وأنفسكم الحائرة.. فسيكون بغيكم وفسادكم واتباعكم الشيطان يرجع على أنفسكم، وإن ركبت حضارتكم السحاب؛ فبدون نور الله تعالى فإن الجميع في عمى.. ضرب الله لكم مثل أضعف شئ في خلقه؛ الذبابة فهى على صغرها لا يستطيع علمكم الذي تتشدقون به ان يصنع مثلها تماما ولو اجتمع علم الأرض على ذلك، وإذا ما أخذت منكم شيئا فلن تستطيعوا رده..فيا مَن كفرتم بالله وظننتم أنكم ملكتم الأرض والعلوم مثلكم كمثل

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الذبابة مخلوق ضعيف.. وهذه السيطرة والتكبر والطغيان زائف.. أنتم دائما وأبدا الفقراء المحتاجين إلى الله والله هو الغنى الحميد.. من ضل فإنما يضل على نفسه ويهلكها ومن اهتدي يهتدي لنفسه فيصلحها وينقذها.. لأن هناك يومٌ عظيم مهول ينتهي فيه هذا العالم ويزلزل كل ما فيه في زلزلةٍ عظيمةٍ تذهل فيها المراضع عن أبنائها، ولا يستطيع أن ينفع ولد والده ولا والد ولده.. فاجعلوا بينكم وبين هذا اليوم العظيم المهول وقاية.. اتقوا الله واعبدوه ولا تتبعوا خطوات الشيطان.

١. {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١)} (البقرة: ٢١)

٢. {يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (١٦٨)} (البقرة: ١٦٨)

٣. {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (١) } (النساء: ١، ٢)

٤. {يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١٧٠) } (النساء: ١٧٠)

٥. {يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا (١٧٤) } (النساء: ١٧٤، ١٧٥)

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

٦. {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥٨)} (الأعراف: ١٥٨)

٧. {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٣)} (يونس: ٢٣)

٨. {يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (٥٧)} (يونس: ٥٧)

٩. {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٤)} (يونس: ١٠٤)

١٠. { قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ (١٠٨)} (يونس: ١٠٨)

١١. {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١)} (الحج: ١)

١٢. {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٥) } (الحج: ٥)

١٣. {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٤٩)} (الحج: ٤٩)

١٤. {يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (٧٣)} (الحج: ٧٣)

١٥. {وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ (١٦)} (النمل: ١٦)

١٦. {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ (٣٣)} (لقمان: ٣٣)

١٧. {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (٣)} (فاطر: ٣)

١٨. { يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ (٥)} (فاطر: ٥)

١٩. { يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (١٥)} (فاطر: ١٥)

٢٠. {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (١٣)} (الحجرات: ١٣)

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

كانت هذه رسائل ونداءات ربانية عظيمة تنتظم النور الرباني للناس جميعا.. ولكل الأمم في كل العصور.. ترسم معالم الدين والحياة بالحقائق الكبرى عن هذا الوجود.. مَن خلقه وخلقنا؟ وكيف خلقنا ؟ وكيف هى منزلتنا في هذا الوجود؟ ومَن الذي اعترض وحسد وتربص؟ وكيف نفلت من كيده، وكيف النجاة ؟ وماذا يأمرنا الله تعالى؟ وما هى الأدلة والبراهين التي تبين لنا صحة هذه الحقائق؟ وكيف تكون علاقات البشر بين بعضهم البعض ؟ وكيف نعمر الأرض ؟ وكيف نستعد ليوم الحساب ؟

لقد كانت هذه النداءات الربانية العظيمة تجيب على الأسئلة الأكبر في الحياة، والتي حيرت الفلاسفة وكبار العقول.. وتطرح المفاهيم الأكبر في الدين والوجود: الله.. الخلق.. الشيطان.. الإنسان.. الهداية.. الرسل والكتب السماوية والبراهين.. واليوم الآخر والحساب والجزاء.

وهذه النداءات الربانية العظيمة لكل الناس بتلك المعاني الأكبر التي تنادي بعالمية هذا الإسلام وأحقيته الأولي بقيادة العالم والناس على أمواج الحياة العالية نحو بر الأمان.. قال البيضاوي في تفسيره: وإنما كثر النداء في القرآن ب {يَاأَيُّهَا} لاستقلاله بأوجهٍ من التأكيد، وكل ما نادى الله له عباده من حيث إنها أمور عظام من حقها أن يتفطنوا لها، ويقبلوا بقلوبهم عليها وأكثرهم عنها غافلون حقيقٌ بأن يُنادى له بالآكد الأبلغ.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

{ أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض... الآية}

وهنا يتوجه الخطاب القرآني لهم ولأمثالهم فيقول: {... أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٨٥)} (البقرة: ٨٥)

قال العلامة ابن عطية [٤٩]: وهذه الآية خطاب لقريظة والنضير وبني قينقاع (طوائف اليهود الثلاث في المدينة)، وذلك أن النضير وقريظة حالفت الأوس، وبني قينقاع حالفت الخزرج، فكانوا إذا وقعت الحرب بين بني الأوس والخزرج ذهبت كل طائفة من بني إسرائيل مع أحلافها فقتل بعضهم بعضا وأخرج بعضهم بعضا من ديارهم، وكانوا مع ذلك يفدي بعضهم أسرى بعض اتباعا لحكم التوراة؛ وهم قد خالفوها بالقتال والإخراج.ا.هـ.

والخطاب هنا في صميم هذا الفصام النكد والمرض العضال من تقسيم الكتاب فيُؤمِن المتحايلون المتحللون ببعضه ويكفرون ببعضه الذي لا يواكب أهوائهم؛ والخطاب هنا وإن كان لليهود ابتداءً وعلى فعلهم نزل، ولكنه – بعمومه – يتناول كل أمةٍ وكل كتابٍ، فكل مَن فرَّق بين آيات الكتاب؛ أو بين الكتاب والسنة فقد عمَّه النذير وشمله الخطاب الشديد اللهجة في هذه الآيات، فقد رُوِيَ أنَّ عمر بن الخَطَّاب- رضي اللَّه عنه- قال: « إن بني إسرائيل قد مَضَوْا، وإنكم أنتم تُعْنَوْن بهذا الحديث » يريد هذا الحديث وما يجري مجراه..

وهذا هو الحاصل عند مَن خانه عقله وهواه وقضى الله بضلاله حين يأخذ جزءاً من الحق ويضرب به جزءاً آخر فيضل ويتيه، ومنهم مثلاً (الجبرية) الذين جعلوا الإنسان بلا اختيار ولا مشيئة في أفعاله كريشةٍ في رياح القدر يحركها كيف يشاء وهم

---

[٤٩] تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (١/ ١٧٤)

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

يحتجون بقوله سبحانه {وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ } (القصص: ٦٨) وبذلك رتبوا عقائدهم الفاسدة على شطر الحق الذي أخذوه وبالغوا فيه حتى ضلوا وهلكوا بزعمهم أن الله تعالى قدَّر المعاصي وخلقها وبذلك صار الثواب بالجنة والعقاب بالنار لا معنى له سوى ان الله يفعل ما يشاء بلا اختيار للعبد في معصيةٍ أو طاعة؛ وهذا عين الضلال.. وفي مقابلهم فرقة (القدرية المعتزلة) الذين رأوا نصف الحق الآخر وكفروا بالنصف الأول الذي احتج به أولئك وأوَّلوه موافقةً لفكرهم وهواهم وزعموا أن لا قدر يحكم وأن العبد يتصرف كيف يشاء بغير قيود القضاء ولذلك يحاسب ويعاقب وقد احتجوا بآياتٍ وقالوا: قد أضاف الله الأعمال إلى العباد بأنواع الإضافة العامة والخاصة فأضافها إليهم بالاستطاعة تارة كقوله: {وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ} وبالمشيئة تارة كقوله: {لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ} وبالإرادة تارة كقول الخضر {فأردت أن أعيبها}، وبالفعل والكسب والصنع كقوله: {يَفْعَلُونَ}: {يَعْمَلُونَ}: {بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ}: {لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ} وأما بالإضافة الخاصة فكإضافة الصلاة والصيام والحج والطهارة والزنا والسرقة والقتل والكذب والكفر والفسوق وسائر أفعالهم إليهم...[٥٠]

قال العلامة ابن القيم: وهذا الكلام مشتمل على حق وباطل.. أما قولك: أنه أضاف الأفعال إليهم فحق لا ريب فيه، وهذا حجة لك على خصومك من الجبرية؛ وهم يجيبونك بأن هذا الإسناد لا حقيقة له وإنما هو نسبة مجازية صححها قيام الأفعال بهم كما يقال: جرى الماء وبرد وسخن، ومات زيد.. ونحن نساعدك على بطلان هذا الجواب ومنافاته للعقول والشرائع والفطر ، ولكن قولك: هذه الإضافة تمنع إضافتها إلى الله سبحانه فهو كلام فيه إجمال وتلبيس: فإن أردتَ بمنع

٥٠ شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل (ص: ١٥٢) دار المعرفة، بيروت، لبنان

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الإضافة إليه منع قيامها به، ووصفه بها، وجريان أحكامها عليه، واشتقاق الأسماء منها له سبحانه؛ فنعم هي غير مضافة إليه بشيء من هذه الاعتبارات والوجوه.

وإن أردتَ بعدم إضافتها إليه عدم إضافتها إلى علمه بها، وقدرته عليها، ومشيئته العامة، وخلقه؛ فهذا باطل.. فإنها معلومةٌ له سبحانه مقدورة له مخلوقة، وإضافتها إليهم لا تمنع هذه الإضافة..كالأموال فإنها مخلوقة له سبحانه وهي ملكه حقيقةً قد أضافها إليهم.. فالأعمال والأموال خلقه وملكه وهو سبحانه يضيفها إلى عبيده، وهو الذي جعلهم مالكيها وعامليها فصحت النسبتان [أى نسبة الأفعال إلى الله تعالى خلقاً وعلماً وقدرةً وتقديراً، ونسبتها إلى العباد فعلا وكسباً يُجازَون بها و عليها يُحاسَبون].. وحصول الأموال بكسبهم وإرادتهم كحصول الأعمال، وهو الذي خلق الأموال وكاسبيها والأعمال وعامليها؛ فأموالهم وأعمالهم ملكه وبيده؛ كما أن أسماعهم وأبصارهم وأنفسهم ملكه وبيده فهو الذي جعلهم يسمعون ويبصرون ويعملون.(٥١)

وبعد هذا المثال الذي تبيَّنا فيه مسألةً واحدةً من المسائل الحرجة في العقيدة فوجدنا سر الخلط فيها والزيغ عن جادة الصواب هو العجز عن القراءة الشاملة للنص القرآني مما أدى إلى رؤية شطر الحق والانكار لشطره الآخر؛ بل وتأويله والكفر به؛ وهو عين الإيمان ببعض الكتاب والكفر ببعضه؛ وضرب الآيات بعضها ببعض، وهذا هو الإطار النظري العام في جميع الفرق المبتدعة في دين الله غالباً، تجده في الخوارج والروافض والمعتزلة والمرجئة وغيرهم من الهالكين؛ وهم في اتباعهم الشبهات يحذون حذو اليهود والنصارى في ابتداعهم واختلافهم على أنبيائهم.

---

٥١ راجع المصدر السابق (ص: ١٥٢) وما بعدها

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

• كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ "

من جميل ما قاله ا/ سيد قطب عفا الله عنا وعنه في ظلال القرآن (١/ ٥٣٨):

وحين تعرضه لقول الله عز وجل: «كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ، وَإِنَّما تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ، فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فازَ، وَمَا الْحَياةُ الدُّنْيا إِلَّا مَتاعُ الْغُرُورِ».

يقول: إنه لا بد من استقرار هذه الحقيقة في النفس..

حقيقة أن الحياة في هذه الأرض موقوتة، محدودة بأجل ثم تأتي نهايتها حتما..

يموت الصالحون ويموت الطالحون..

يموت المجاهدون ويموت القاعدون..

يموت المستَعْلون بالعقيدة ويموت المستَذَلّون للعبيد..

يموت الشجعان الذين يأبون الضيم، ويموت الجبناء الحريصون على الحياة بأي ثمن..

يموت ذوو الاهتمامات الكبيرة والأهداف العالية، ويموت التافهون الذين يعيشون فقط للمتاع الرخيص.

الكل يموت..

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

«كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ».. كل نفسٍ تذوق هذه الجرعة، وتفارق هذه الحياة.. لا فارق بين نفس ونفس في تذوق هذه الجرعة من هذه الكأس الدائرة على الجميع. إنما الفارق في شيء آخر.

الفارق في قيمة أخرى. الفارق في المصير الأخير:

«وَإِنَّما تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ. فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فازَ»..

هذه هي القيمة التي يكون فيها الافتراق. وهذا هو المصير الذي يفترق فيه فلان عن فلان. القيمة الباقية التي تستحق السعي والكد. والمصير المخوف الذي يستحق أن يحسب له ألف حساب:

«فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فازَ»..

ولفظ «زُحْزِحَ» بذاته يصور معناه بجرسه، ويرسم هيئته، ويلقي ظله! وكأنما للنار جاذبية تشد إليها من يقترب منها، ويدخل في مجالها! فهو في حاجة إلى من يزحزحه قليلاً قليلاً ليخلصه من جاذبيتها المنهومة! فمن أمكن أن يزحزح عن مجالها، ويستنقذ من جاذبيتها، ويدخل الجنة.. فقد فاز..

صورةٌ قوية. بل مشهدٌ حي. فيه حركةٌ وشدٌ وجذبٌ! وهو كذلك في حقيقته وفي طبيعته.

فللنار جاذبية! أليست للمعصية جاذبية؟

أليست النفس في حاجة إلى من يزحزحها زحزحة عن جاذبية المعصية؟ بلى! وهذه هي زحزحتها عن النار! أليس الإنسان- حتى مع المحاولة واليقظة الدائمة- يظل أبداً مقصراً في العمل.. إلا أن يدركه فضل الله؟ بلى! وهذه هي الزحزحة عن النار حين يدرك الإنسان فضل الله، فيزحزحه عن النار!

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

«وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيا إِلَّا مَتاعُ الْغُرُورِ»..

إنها متاع. ولكنه ليس متاع الحقيقة، ولا متاع الصحو واليقظة..

إنها متاع الغرور. المتاع الذي يخدع الإنسان فيحسبه متاعا.

أو المتاع الذي ينشئ الغرور والخداع! فأما المتاع الحق.. المتاع الذي يستحق الجهد في تحصيله.. فهو ذاك.. هو الفوز بالجنة بعد الزحزحة عن النار. ا.هـ.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ثم يقول: في ظلال القرآن (١/ ٥٣٩)

وعند ما تكون هذه الحقيقة قد استقرت في النفس. عند ما تكون النفس قد أخرجت من حسابها حكاية الحرص على الحياة- إذ كل نفس ذائقة الموت على كل حال- وأخرجت من حسابها حكاية متاع الغرور الزائل..

عندئذ يحدث الله المؤمنين عما ينتظرهم من بلاء في الأموال والأنفس. وقد استعدت نفوسهم للبلاء:

«لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ، وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذىً كَثِيراً. وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ»..

إنها سنة العقائد والدعوات. لا بد من بلاء، ولا بد من أذى في الأموال والأنفس، ولا بد من صبر ومقاومة واعتزام.

إنه الطريق إلى الجنة. وقد حفت الجنة بالمكاره. بينما حفت النار بالشهوات.

ثم إنه هو الطريق الذي لا طريق غيره، لإنشاء الجماعة التي تحمل هذه الدعوة، وتنهض بتكاليفها. طريق التربية لهذه الجماعة وإخراج مكنوناتها من الخير والقوة والاحتمال. وهو طريق المزاولة العملية للتكاليف والمعرفة الواقعية لحقيقة الناس وحقيقة الحياة.

ذلك ليثبت على هذه الدعوة أصلب أصحابها عوداً. فهؤلاء هم الذين يصلحون لحملها إذن والصبر عليها..

فهم عليها مؤتمنون.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وذلك لكي تعز هذه الدعوة عليهم وتغلو، بقدر ما يصيبهم في سبيلها من عنت وبلاء، وبقدر ما يضحون في سبيلها من عزيز وغال. فلا يفرطوا فيها بعد ذلك، مهما تكن الأحوال.

وذلك لكي يصلب عود الدعوة والدعاة. فالمقاومة هي التي تستثير القوى الكامنة، وتنميها وتجمعها وتوجهها.

والدعوة الجديدة في حاجة إلى استثارة هذه القوى، لتتأصل جذورها وتتعمق وتتصل بالتربة الخصبة الغنية في أعماق الفطرة..

وذلك لكي يعرف أصحاب الدعوة حقيقتهم هم أنفسهم وهم يزاولون الحياة والجهاد مزاولة عملية واقعية. ويعرفوا حقيقة النفس البشرية وخباياها. وحقيقة الجماعات والمجتمعات. وهم يرون كيف تصطرع مبادئ دعوتهم، مع الشهوات في أنفسهم وفي أنفس الناس. ويعرفون مداخل الشيطان إلى هذه النفوس، ومزالق الطريق، ومسارب الضلال! ثم.. لكي يشعر المعارضون لها في النهاية أنه لا بد فيها من خير، ولا بد فيها من سر، يجعل أصحابها يلاقون في سبيلها ما يلاقون وهم صامدون.. فعندئذ قد ينقلب المعارضون لها إليها.. أفواجاً.. في نهاية المطاف! إنها سنة الدعوات. وما يصبر على ما فيها من مشقة ويحافظ في ثنايا الصراع المرير على تقوى الله، فلا يشط فيعتدي وهو يرد الاعتداء ولا ييأس من رحمة الله ويقطع أمله في نصره وهو يعاني الشدائد.. ما يصبر على ذلك كله إلا أولو العزم الأقوياء:

«وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ»..

وهكذا علمت الجماعة المسلمة في المدينة ما ينتظرها من تضحيات وآلام. وما ينتظرها من أذى وبلاء في الأنفس والأموال. من أهل الكتاب من حولها. ومن المشركين أعدائها.. ولكنها سارت في الطريق. لم تتخاذل، ولم تتراجع، ولم تنكص

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

على أعقابها.. لقد كانت تستيقن أن كل نفس ذائقة الموت. وأن توفية الأجور يوم القيامة. وأنه من زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز. وأن الحياة الدنيا ما هي إلا متاع الغرور.. على هذه الأرض الصلبة المكشوفة كانت تقف وفي هذا الطريق القاصد الواصل كانت تخطو.. والأرض الصلبة المكشوفة باقية لأصحاب هذه الدعوة في كل زمان. والطريق القاصد الواصل مفتوح يراه كل إنسان. وأعداء هذه الدعوة هم أعداؤها، تتوالى القرون والأجيال وهم ماضون في الكيد لها من وراء القرون والأجيال..

والقرآن هو القرآن..

وتختلف وسائل الابتلاء والفتنة باختلاف الزمان وتختلف وسائل الدعاية ضد الجماعة المسلمة، ووسائل إيذائها في سمعتها وفي مقوّماتها وفي أعراضها وفي أهدافها وأغراضها.. ولكن القاعدة واحدة: «لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذىً كَثِيراً» ! ولقد حفلت السورة بصور من مكايد أهل الكتاب والمشركين وصور من دعايتهم للبلبلة والتشكيك.

أحياناً في أصول الدعوة وحقيقتها، وأحياناً في أصحابها وقيادتها. وهذه الصور تتجدد مع الزمان. وتتنوع بابتداع وسائل الدعاية الجديدة، وتوجه كلها إلى الإسلام في أصوله الاعتقادية، وإلى الجماعة المسلمة والقيادة الإسلامية. فلا تخرج على هذه القاعدة التي كشف الله عنها للجماعة المسلمة الأولى، وهو يكشف لها عن طبيعة الطريق، وطبيعة الأعداء الراصدين لها في الطريق..

ويبقى هذا التوجيه القرآني رصيداً للجماعة المسلمة كلما همت أن تتحرك بهذه العقيدة، وأن تحاول تحقيق منهج الله في الأرض فتجمعت عليها وسائل الكيد والفتنة، ووسائل الدعاية الحديثة، لتشويه أهدافها، وتمزيق أوصالها.. يبقى هذا

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

التوجيه القرآني حاضراً يجلو لأبصارها طبيعة هذه الدعوة، وطبيعة طريقها. وطبيعة أعدائها الراصدين لها في الطريق. ويبث في قلبها الطمأنينة لكل ما تلقاه من وعد الله ذاك فتعرف حين تتناوشها الذئاب بالأذى، وحين تعوي حولها بالدعاية، وحين يصيبها الابتلاء والفتنة.. أنها سائرة في الطريق، وأنها ترى معالم الطريق! ومن ثم تستبشر بالابتلاء والأذى والفتنة والادعاء الباطل عليها وإسماعها ما يكره وما يؤذي.. تستبشر بهذا كله، لأنها تستيقن منه أنها ماضية في الطريق التي وصفها الله لها من قبل. وتستيقن أن الصبر والتقوى هما زاد الطريق. ويبطل عندها الكيد والبلبلة ويصغر عندها الابتلاء والأذى وتمضي في طريقها الموعود، إلى الأمل المنشود.. في صبر وفي تقوى.. وفي عزم أكيد..

الشيطان والاستعاذة بالله منه في كتاب الله وتأملات

الاستعاذة ليست آية من كتاب الله تعالى، وإنما هى أدب ربانى من الله لعباده، يعلمهم كيف يلجأون إلى جناب الله قبل كل خطوة يخطونها أو عمل يعملونه؛ متبرأين من حولهم وخطأهم، ومستعينين به على أنفسهم وعلى الشيطان اللعين.. وهذه هى أول الآداب القرآنية، وأول لبنات التصور الإسلامي لتربية الفرد المسلم وتنشئته على اللجوء إلى الله في كل شيئ، لا إشراك لأى أحد معه مهما بلغ، لا نبى ولا ولى ولا غيره.. إنما الاستعاذة واللجوء – في تحقيق التوحيد – تكون لله، ولله فقط.. فافهم...

يقول ربنا سبحانه {فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٩٨) إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٩٩) إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ (١٠٠)النحل }

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

قال العلامة ابن كثير – رحمه الله –: هَذَا أَمْرٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِعِبَادِهِ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِذَا أَرَادُوا قِرَاءَةَ الْقُرْآنِ، أَنْ يَسْتَعِيذُوا بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ. وَهُوَ أمرُ ندبٍ لَيْسَ بِوَاجِبٍ، حَكَى الْإِجْمَاعَ عَلَى ذَلِكَ الْإِمَامُ أَبُو جَعْفَرٍ بْنُ جَرِيرٍ وَغَيْرُهُ مِنَ الْأَئِمَّةِ... وَالْمَعْنَى فِي الِاسْتِعَاذَةِ عِنْدَ ابْتِدَاءِ الْقِرَاءَةِ، لِئَلَّا يُلْبَسَ عَلَى الْقَارِئِ قِرَاءَتُهُ وَيُخْلَطَ عَلَيْهِ، وَيَمْنَعُهُ مِنَ التَّدَبُّرِ وَالتَّفَكُّرِ، وَلِهَذَا ذَهَبَ الْجُمْهُورُ إِلَى أَنَّ الِاسْتِعَاذَةَ إِنَّمَا تَكُونُ قَبْلَ التِّلَاوَةِ...

وَقَوْلُهُ: {إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} قَالَ الثَّوْرِيُّ: لَيْسَ لَهُ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ أَنْ يُوقِعَهُمْ فِي ذَنْبٍ لَا يَتُوبُونَ مِنْهُ. وَقَالَ آخَرُونَ: مَعْنَاهُ لَا حُجَّةَ لَهُ عَلَيْهِمْ. وَقَالَ آخَرُونَ: كَقَوْلِهِ: {إِلا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ} [ص: ٨٣]. {إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ} قَالَ مُجَاهِدٌ: يُطِيعُونَهُ. وَقَالَ آخرون: اتخذوه وليًا من دون الله... {وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ} أَيْ: أَشْرَكُوا فِي عِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى. وَيُحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ الْبَاءُ سَبَبِيَّةً، أَيْ: صَارُوا بِسَبَبِ طَاعَتِهِمْ لِلشَّيْطَانِ مُشْرِكِينَ بِاللَّهِ تَعَالَى...)ا.هـ. ابن كثير ٤/٦٠٣

وأما الاستعاذة من شر شياطين الإنس الملبسين للباطل على الحق فيقول فيه ربنا تبارك وتعالى: وَقَوْلُهُ: {إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ} أَيْ: يَدْفَعُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ، وَيَرُدُّونَ الْحُجَجَ الصَّحِيحَةَ بِالشُّبَهِ الْفَاسِدَةِ بِلَا بُرْهَانٍ وَلَا حُجَّةٍ مِنَ اللَّهِ، {إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ}أَيْ: مَا فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبَرٌ عَلَى اتِّبَاعِ الْحَقِّ، وَاحْتِقَارٌ لِمَنْ جَاءَهُمْ بِهِ، وَلَيْسَ مَا يَرُومُونَهُ مِنْ إِخْمَالِ الْحَقِّ وَإِعْلَاءِ الْبَاطِلِ بِحَاصِلٍ لَهُمْ، بَلِ الْحَقُّ هُوَ الْمَرْفُوعُ، وَقَوْلُهُمْ وَقَصْدُهُمْ هُوَ الْمَوْضُوعُ، {فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ} أَيْ: مِنْ حَالِ مِثْلِ هَؤُلَاءِ، {إِنَّه هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ(غافر ٤٠)} أَوْ مِنْ شَرِّ مِثْلِ هَؤُلَاءِ الْمُجَادِلِينَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ. هَذَا تَفْسِيرُ ابْنِ جَرِيرٍ.) ا.هـ. ابن كثير ٧/١٥٢

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

واستعاذة المؤمن من شر المضللين أدب آخر يعلمه الله عباده، فهم أشد من الشيطان مكرا وضررا لمن تدبر.. عن حذيفة قَالَ: كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُول الله صلى الله عَلَيْهِ وَسلم عَن الْخَيْرِ وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا كُنَّا فِي جَاهِلِيَّةٍ وَشَرٍّ فَجَاءَنَا اللَّهُ بِهَذَا الْخَيْرِ فَهَلْ بَعْدَ هَذَا الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ قَالَ: «نَعَمْ» قُلْتُ: وَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الشَّرِّ مِنْ خَيْرٍ؟ قَالَ: «نَعَمْ وَفِيهِ دَخَنٌ». قُلْتُ: وَمَا دَخَنُهُ؟ قَالَ: «قَوْمٌ يَسْتَنُّونَ بِغَيْرِ سُنَّتِي وَيَهْدُونَ بِغَيْرِ هَدْيِي تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ». قُلْتُ: فَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ قَالَ: «نَعَمْ دُعَاةٌ عَلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا». قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ صِفْهُمْ لَنَا. قَالَ: «هُمْ مِنْ جِلْدَتِنَا وَيَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَتِنَا». قُلْتُ: فَمَا تَأْمُرُنِي إِنْ أَدْرَكَنِي ذَلِكَ؟ قَالَ: «تَلْزَمُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ». قُلْتُ: فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ جَمَاعَةٌ وَلَا إِمَامٌ؟ قَالَ: «فَاعْتَزِلْ تِلْكَ الْفِرَقَ كُلَّهَا وَلَوْ أَنْ تَعَضَّ بِأَصْلِ شَجَرَةٍ حَتَّى يُدْرِكَكَ الْمَوْتُ وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ. وَفِي رِوَايَةٍ لِمُسْلِمٍ: قَالَ: «يَكُونُ بَعْدِي أَئِمَّةٌ لَا يَهْتَدُونَ بِهُدَايَ وَلَا يَسْتَنُّونَ بِسُنَتِي وَسَيَقُومُ فِيهِمْ رِجَالٌ قُلُوبُهُمْ قُلُوبُ الشَّيَاطِينِ فِي جُثْمَانِ إِنْسٍ». قَالَ حُذَيْفَةُ: قُلْتُ: كَيْفَ أَصْنَعُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنْ أَدْرَكْتُ ذَلِكَ؟ قَالَ: تَسْمَعُ وَتُطِيعُ الْأَمِيرَ وَإِنْ ضُرِبَ ظَهْرُكَ وَأُخِذَ مَالُكَ فَاسْمَعْ وَأَطِعْ ".. ولذا قال تعالى معلما خلقه الاستعاذة بربهم ومليكهم " قل أعوذ برب الناس.... الآيات.. من الجنة والناس" فعلمهم الاستعاذة بربهم من الوسواس اللعين سواء كان من الجن أو الإنس..

وَقَوْلُهُ: {وَإِمَّا يَنزغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نزغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ}[فُصِّلَتْ: ٣٦] أَيْ: إِنَّ شَيْطَانَ الْإِنْسِ رُبَّمَا يَنْخَدِعُ بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِ، فَأَمَّا شَيْطَانُ الْجِنِّ فَإِنَّهُ لَا حِيلَةَ فِيهِ إِذَا وَسْوَسَ إِلَّا الِاسْتِعَاذَةَ بِخَالِقِهِ الَّذِي سَلَّطَهُ عَلَيْكَ، فَإِذَا اسْتَعَذْتَ بِاللَّهِ وَلَجَأْتَ إِلَيْهِ، كَفَّهُ عَنْكَ وَرَدَّ كَيْدَهُ. وَقَدْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِذَا قَامَ إِلَى الصَّلَاةِ يَقُولُ: "أَعُوذُ بِاللَّهِ السَّمِيعِ الْعَلِيمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ مِنْ هَمْزِهِ وَنَفْخِهِ وَنَفْثِهِ"..

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وقوله تعالى:"وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٠٠) إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ (٢٠١) وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ (٢٠٢) " يقول سبحانه مربيا نبيه على أرقى تربية وأعظمها.. { " خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (١٩٩) " {خُذِ الْعَفْوَ} قَالَ: مِنْ أَخْلَاقِ النَّاسِ وَأَعْمَالِهِمْ (أى لا تكلفهم فوق ما يطيقون، بل إصبر على رذيل خصالهم وعاملهم بأحسنها) وَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ نَبِيَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَأْمُرَ عِبَادَهُ بِالْمَعْرُوفِ، وَيَدْخُلُ فِي ذَلِكَ جَمِيعُ الطَّاعَاتِ، وَبِالْإِعْرَاضِ عَنِ الْجَاهِلِينَ، وَذَلِكَ وَإِنْ كَانَ أَمْرًا لِنَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَإِنَّهُ تَأْدِيبٌ لِخُلُقِهِ بِاحْتِمَالِ مَنْ ظَلَمَهُمْ وَاعْتَدَى عَلَيْهِمْ، لَا بِالْإِعْرَاضِ عَمَّنْ جَهِلَ الْحَقَّ الْوَاجِبَ مَنْ حَقَّ اللَّهِ، وَلَا بِالصَّفْحِ عَمَّنْ كَفَرَ بِاللَّهِ وَجَهِلَ وَحْدَانِيَّتَهُ، وَهُوَ لِلْمُسْلِمِينَ حَرْبٌ. هَذِهِ أَخْلَاقٌ أَمَرَ اللَّهُ [عَزَّ وَجَلَّ] بِهَا نَبِيَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَدَلَّهُ عَلَيْهَا.

وَقَدْ أَخَذَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ هَذَا الْمَعْنَى، فَسَبَكَهُ فِي بَيْتَيْنِ فِيهِمَا جِنَاسٌ فَقَالَ:

خُذ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بعُرفٍ كَمَا... أُمِرتَ وأعْرض عَنِ الجَاهلينْ...

وَلِنْ فِي الكَلام لكُلِّ الْأَنَامِ... فَمُسْتَحْسَن مِنْ ذَوِي الْجَاهِ لِينْ...

وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: النَّاسُ رَجُلَانِ: فَرَجُلٌ مُحْسِنٌ، فَخُذْ مَا عَفَا لَكَ مِنْ إِحْسَانِهِ، وَلَا تُكَلِّفْهُ فَوْقَ طَاقَتِهِ وَلَا مَا يُحْرِجُهُ. وَإِمَّا مُسِيءٌ، فَمُرْهُ بِالْمَعْرُوفِ، فَإِنْ تَمَادَى عَلَى ضَلَالِهِ، وَاسْتَعْصَى عَلَيْكَ، وَاسْتَمَرَّ فِي جَهْلِهِ، فَأَعْرِضْ عَنْهُ، فَلَعَلَّ ذَلِكَ أَنْ يَرُدَّ كَيْدَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: {ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ * وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ * وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ} [المؤمنون:٩٦-٩٨] قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ: {وَإِمَّا يَنزغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نزغٌ} وَإِمَّا يُغْضِبَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ غَضَبٌ يَصُدُّكَ عَنِ الْإِعْرَاضِ عَنِ الْجَاهِلِينَ وَيَحْمِلُكَ عَلَى

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

مُجَازَاتِهِمْ {فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ} يَقُولُ: فَاسْتَجِرْ بِاللَّهِ مِنْ نَزْغِهِ {سَمِيعٌ عَلِيمٌ} يَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ الَّذِي تَسْتَعِيذُ بِهِ مِنْ نَزْغِ الشَّيْطَانِ سَمِيعٌ لِجَهْلِ الْجَاهِلِ عَلَيْكَ، وَالِاسْتِعَاذَةِ بِهِ مِنْ نَزْغِهِ، وَلِغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ كَلَامِ خَلْقِهِ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْهُ شَيْءٌ، عَلِيمٌ بِمَا يُذْهِبُ عَنْكَ نَزْغَ الشَّيْطَانِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أُمُورِ خَلْقِهِ.

قُلْتُ (أى ابن كثير رحمه الله تعالى): وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي أَوَّلِ الِاسْتِعَاذَةِ حَدِيثُ الرَّجُلَيْنِ اللَّذَيْنِ تَسَابَّا بِحَضْرَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَغَضِبَ أَحَدُهُمَا حَتَّى جَعَلَ أَنْفُهُ يَتَمَزَّعُ غَضَبًا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِنِّي لِأَعْلَمُ كَلِمَةً لَوْ قَالَهَا لَذَهَبَ عَنْهُ مَا يَجِدُ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ". فَقِيلَ لَهُ، فَقَالَ: مَا بِي مِنْ جُنُونٍ

وَأَصْلُ "النَّزْغِ": الْفَسَادُ، إِمَّا بِالْغَضَبِ أَوْ غَيْرِهِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزغُ بَيْنَهُمْ} [الْإِسْرَاءِ:٥٣] وَ"الْعِيَاذُ": الِالْتِجَاءُ وَالِاسْتِنَادُ وَالِاسْتِجَارَةُ مِنَ الشَّرِّ، وَأَمَّا "الْمَلَاذُ" فَفِي طَلَبِ الْخَيْرِ، كَمَا قَالَ أَبُو الطِّيبِ [الْحَسَنُ بْنُ هَانِئٍ] الْمُتَنَبِّي:

يَا مَنْ ألوذُ بِهِ فيمَا أؤمِّلُه... وَمَنْ أعوذُ بِهِ مِمَّا أحاذرُه...

لَا يَجْبر النَّاسُ عَظمًا أَنْتَ كاسرُه... وَلَا يَهِيضُون عَظمًا أَنْتَ جَابِره.} من تفسير ابن كثير بتصرف وحذف٣/٣٥٥.

قال ابن كثير: (فَهَذِهِ ثَلَاثُ آيَاتٍ لَيْسَ لَهُنَّ رَابِعَةٌ فِي مَعْنَاهَا، وَهُوَ أَنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِمُصَانَعَةِ الْعَدُوِّ الْإِنْسِيِّ وَالْإِحْسَانِ إِلَيْهِ، لِيَرُدَّهُ عَنْهُ طبعُهُ الطَّيب الْأَصْلِ إِلَى الْمُوَادَّةِ وَالْمُصَافَاةِ، وَيَأْمُرُ بِالِاسْتِعَاذَةِ بِهِ مِنَ الْعَدُوِّ الشَّيْطَانِيِّ لَا مَحَالَةَ؛ إِذْ لَا يَقْبَلُ مُصَانَعَةً وَلَا إِحْسَانًا وَلَا يَبْتَغِي غَيْرَ هَلَاكِ ابْنِ آدَمَ، لِشِدَّةِ الْعَدَاوَةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَبِيهِ آدَمَ مِنْ قَبْلُ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: {يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الْجَنَّةِ} [الْأَعْرَافِ: ٢٧] وَقَالَ: {إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ} [فَاطِرٍ: ٦] وَقَالَ {أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلا} [الْكَهْفِ: ٥٠]، وَقَدْ أَقْسَمَ لِلْوَالِدِ إِنَّهُ لَمِنَ النَّاصِحِينَ، وَكَذَبَ، فَكَيْفَ مُعَامَلَتُهُ لَنَا وَقَدْ قَالَ: {فَبِعِزَّتِكَ لأغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ} [ص: ٨٢، ٨٣]،.. قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ رَحِمَهُ اللَّهُ:

...عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلم إذا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ فَاسْتَفْتَحَ صَلَاتَهُ وكبَّر قَالَ: " سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، وَتَبَارَكَ اسْمُكَ، وَتَعَالَى جَدُّكَ، وَلَا إِلَهَ غَيْرُكَ ". وَيَقُولُ: " لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ " ثَلَاثًا، ثُمَّ يَقُولُ: " أَعُوذُ بِاللَّهِ السَّمِيعِ الْعَلِيمِ، مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، مِنْ هَمْزِه ونَفْخِه ونَفْثِه ". وَقَدْ رَوَاهُ أَهْلُ السُّنَنِ الْأَرْبَعَةِ....وعَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ، قَالَ: استَب رَجُلَانِ عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَغَضِبَ أَحَدُهُمَا غَضَبًا شَدِيدًا حَتَّى خُيِّل إِلَيَّ أَنَّ أَحَدَهُمَا يَتَمزّع أَنْفُهُ مِنْ شِدَّةِ غَضَبِهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " إِنِّي لِأَعْلَمُ كَلِمَةً لَوْ قَالَهَا لَذَهَبَ عَنْهُ مَا يَجِدُ مِنَ الْغَضَبِ " قَالَ: مَا هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: " يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ". قَالَ: فَجَعَلَ مُعَاذٌ يَأْمُرُهُ، فَأَبَى [وَمَحَكَ] (وهوعند البخاري، وفي المسند (٥/٢٤٤) وسنن أبي داود برقم (٤٧٨٠) وسنن الترمذي برقم (٣٤٥٢) وسنن النسائي الكبرى برقم (١٠٢٢١، ١٠٢٢٢).)، وَجَعَلَ يَزْدَادُ غَضَبًا. وَهَذَا لَفْظُ أَبِي دَاوُدَ.. وَمِنْ لَطَائِفِ الِاسْتِعَاذَةِ أَنَّهَا طَهَارَةٌ لِلْفَمِ مِمَّا كَانَ يَتَعَاطَاهُ مِنَ اللَّغْوِ وَالرَّفَثِ، وَتَطْيِيبٌ لَهُ وَتَهَيُّؤٌ لِتِلَاوَةِ كَلَامِ اللَّهِ وَهِيَ اسْتِعَانَةٌ بِاللَّهِ وَاعْتِرَافٌ لَهُ بِالْقُدْرَةِ وَلِلْعَبْدِ بِالضَّعْفِ وَالْعَجْزِ عَنْ مُقَاوَمَةِ هَذَا الْعَدُوِّ الْمُبِينِ الْبَاطِنِيِّ الَّذِي لَا يَقْدِرُ عَلَى مَنْعِهِ وَدَفْعِهِ إِلَّا اللَّهُ الَّذِي خَلَقَهُ، وَلَا يَقْبَلُ مُصَانَعَةً، وَلَا يُدَارَى بِالْإِحْسَانِ، بِخِلَافِ الْعَدُوِّ مِنْ نَوْعِ الْإِنْسَانِ كَمَا دَلَّتْ عَلَى ذَلِكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ فِي

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ثَلَاثٍ مِنَ الْمَثَانِي، وَقَالَ تَعَالَى: {إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلا} [الْإِسْرَاءِ: ٦٥]، وَقَدْ نَزَلَتِ الْمَلَائِكَةُ لِمُقَاتَلَةِ الْعَدُوِّ الْبَشَرِيِّ يَوْمَ بَدْرٍ، وَمَنْ قَتَلَهُ الْعَدُوُّ الْبَشَرِيُّ كَانَ شَهِيدًا، وَمِنْ قَتَلَهُ الْعَدُوُّ الْبَاطِنِيُّ كَانَ طَرِيدًا، وَمَنْ غَلَبَهُ الْعَدُوُّ الظَّاهِرُ كَانَ مَأْجُورًا، وَمَنْ قَهَرَهُ الْعَدُوُّ الْبَاطِنُ كَانَ مَفْتُونًا أَوْ مَوْزُورًا، وَلَمَّا كَانَ الشَّيْطَانُ يَرَى الْإِنْسَانَ مِنْ حَيْثُ لَا يَرَاهُ اسْتَعَاذَ مِنْهُ بِالَّذِي يَرَاهُ وَلَا يَرَاهُ الشيطان.

والاستعاذة هِيَ الِالْتِجَاءُ إِلَى اللَّهِ وَالِالْتِصَاقُ بِجَنَابِهِ مِنْ شَرِّ كُلِّ ذِي شَرٍّ، وَالْعِيَاذَةُ تَكُونُ لِدَفْعِ الشَّرِّ، وَاللِّيَاذُ يَكُونُ لِطَلَبِ جَلْبِ الْخَيْرِ.. مَعْنَى أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، أَيْ: أَسْتَجِيرُ بِجَنَابِ اللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ أَنْ يَضُرَّنِي فِي دِينِي أَوْ دُنْيَايَ، أَوْ يَصُدَّنِي عَنْ فِعْلِ مَا أُمِرْتُ بِهِ، أَوْ يَحُثَّنِي عَلَى فِعْلِ مَا نُهِيتُ عَنْهُ؛ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يكفُّه عَنِ الْإِنْسَانِ إِلَّا اللَّهُ..؛ لِأَنَّهُ شِرِّيرٌ بِالطَّبْعِ وَلَا يَكُفُّهُ عَنْكَ إِلَّا الَّذِي خَلَقَهُ)ا.هـ. من ابن كثير بتصرف وحذف.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

من صفات أهل النفاق وضعف الإيمان

{ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً (٨٢) وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا (٨٣)} (النساء: ٨٣)

والمعنى: هؤلاء المنافقون الطاعنون عليك، ألا يرجعون إلى الإنصاف والعدل، وينظرون موضع الحجة ويتدبرون كلام الله تعالى؟ فتظهر لهم براهينه، وتبين أدلته، «والتدبر»: النظر في أعقاب الأمور وتأويلات الأشياء، هذا كله يقتضيه قوله: {أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ} وهذا أمر بالنظر والاستدلال، ثم عرَّف تعالى بمواقع الحجة، أي لو كان من كلام البشر لدخله ما في كلام البشر من القصور، وظهر فيه التناقض الذي لا يمكن جمعه، والقرآن منزه عنه، إذ هو كلام الله المحيط بكل شيء علما.

قال القاضي ابن عطية الأندلسي رحمه الله: فإن عرضت لأحد شبهةٌ، وظن اختلافا في شيء من كتاب الله، فالواجب أن يتهم نظره ويسأل من هو أعلم منه،

وقوله تعالى: {وَإِذا جاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ... الآية}، قال جمهور المفسرين: الآية في المنافقين، والآية نازلة في سرايا رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعوثه، والمعنى: أن المنافقين كانوا يتشرفون إلى سماع ما يسوء النبي في سراياه، فإذا طرأت لهم شبهة أمنٍ للمسلمين أو فتحٍ عليهم، حقَّروها وصغَّروا شأنها وأذاعوا بذلك التحقير والتصغير، وإذا طرأت لهم شبهة خوفٍ المسلمين أو مصيبةٍ عظَّموها وأذاعوا ذلك التعظيم، وأَذاعُوا بِهِ معناه: أفشوه.

وقالت فرقة: الآية نازلة في المنافقين، وفي مَن ضعف صبره من المؤمنين وقلَّت تجربته.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

قال القاضي رحمه الله: فإما أن يكون ذلك في أمر السرايا فإنهم كانوا يسمعون أقوال المنافقين فيقولونها مع من قالها، ويذيعونها مع من أذاعها، وهم غير متثبتين في صحتها، وهذا هو الدال على قلة تجربتهم، وإما أن يكون ذلك في سائر الأمور الواقعة. وهذا التأويل جارٍ مع قول عمر: أنا استنبطته ببحثي وسؤالي في قصة ادعاء تطليق الرسول نساءه في الصحيح، وتحتمل الآية أن يكون المعنى لعلمه المسئولون المستنبطون، فأخبروا بعلمهم.[٥٢]

قال السمعاني:والاستنباط: هُوَ اسْتِخْرَاج الْعلم وَمِنْه النبط، وهم قوم يستخرجون المِاء، وَقيل: أَرَادَ بِهِ الْعلمَاء يَعْنِي: وَلَو ردُّوهُ إِلَى الرَّسُول، وَإِلَى أولي الْأَمر مِنْهُم (= العلماء) لعلم الَّذين يستنبطونه مِنْهُم مَا يَنْبَغِي أَن يعلموه. [٥٣]

٥٢ تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٢/ ٨٣)

٥٣ تفسير السمعاني (١/ ٤٥٣)

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الدعاء الرائع في سورة النمل

تأملتُ هذا الدعاء الرائع في سورة النمل الذي دعا به نبى الله سليمان عليه السلام يقول: { رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِين }.

فقد طلب عليه الصلاة والسلام كمال السعادة البشرية في الدنيا ةالآخرة:

١- التوفيق للشكر على نعمه الجليلة الدينيَّةِ والدنيويَّة.

٢-وعمل الطاعات المرضيّة.

٣- ومرافقة خير البريَّة.

وقد اشارت الآية إلى حقائق لطيفة:

١- أن شكر الله على نعمه هو أيضا نعمة من توفيق الله لمعرفة النعمة ومعرفة الطريق إلى شكرها فكم من منعَم عليه ولا يعرف نعمة الله وفضله فيه.

٢- ان من تمام الإنعام على العبد الإنعام على والديه وكم هى عظمة نبى الله سليمان إذ يذكر والديه في موقف النعمة ويجعلها نعمة عليه أيضاً.

٣- أن قيمة العبد الحقيقية في عمله لا في مجرد علمه وقوله على فضلهما، ولكن العمل هو ثمرة اليقين والإيمان ولا إيمان يصح بغير عمل.

٤- ليس كل عمل هو مرضى مقبول عند الله، إلا أن يكون وِفق ما شرع، والمؤمن لا يغتر بعمله وغنما ينظر موضع القبول من الله تعالى لعمله دائما.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

٥- إن قدوة المؤمن هم المؤمنون الصالحون الذين ماتوا على طاعة الله وكتب لهم رضاه، والمؤمن يحبهم ويحب ان يحشره الله معهم ولو لم يعمل بمثل عملهم، وليس يلتفت ابداً إلى مَن أغوتهم الدنيا وإن ملكوا فيها ما ملكوا.

وصدق الشافعي رضى الله عنه إذ يقول:

أحبُّ الصالحين ولستُ منهم *** لعلي أنْ أنالَ بهم شفاعه.

وأكرهُ مَن بضاعته المعاصي *** وإنْ كنَّا سواءً في البضاعه.

{أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا}

قال تعالى في سورة آل عمران:

{ ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١٥٤) إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (١٥٥) }

يقول العلامة ابن كثير رحمه الله: يقول تعالى ممتناً على عباده فيما أنزل عليهم من السكينة والأمنة، وهو النعاس الذي غشيهم وهم مستلئمو السلاح في حال همهم وغمهم، والنعاس في مثل تلك الحال دليل على الأمان كما قال تعالى في سورة

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الأنفال، في قصة بدر: {إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ} (الأنفال: ١١). وقال الإمام بن أبي حاتم:بسنده، عن عبد الله بن مسعود قال: النعاس في القتال من الله، وفي الصلاة من الشيطان.

قال البخاري:بسنده، عن أبي طلحة، رضي الله عنه، قال: كنت فيمن تغشاه النعاس يوم أحد، حتى سقط سيفي من يدي مرارا، يسقط وآخذه، ويسقط وآخذه.

هكذا رواه في المغازي معلقا. ورواه في كتاب التفسير مسندا.

وقال البيهقي: بسنده، أن أبا طلحة قال: غشينا النعاس ونحن في مصافنا يوم أحد، فجعل سيفي يسقط من يدي وآخذه، ويسقط وآخذه، قال: والطائفة الأخرى المنافقون ليس لهم هم إلا أنفسهم، أجبن قوم وأرعنه، وأخذله للحق { يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية }؛ كذبة، أهل شك وريب في الله عز وجل.

هكذا رواه بهذه الزيادة، وكأنها من كلام قتادة، رحمه الله، وهو كما قال، فإن الله عز وجل يقول: {ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاسا يغشى طائفة منكم } يعني: أهل الإيمان واليقين والثبات والتوكل الصادق، وهم الجازمون بأن الله سينصر رسوله وينجز له مأموله، ولهذا قال: {وطائفة قد أهمتهم أنفسهم} يعني: لا يغشاهم النعاس من القلق والجزع والخوف {يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية} كما قال في الآية الأخرى: {بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبدا، وزين ذلك في قلوبكم وظننتم ظن السوء وكنتم قوما بورا } (الفتح: ١٢). وهكذا هؤلاء، اعتقدوا أن المشركين لما ظهروا تلك الساعة أنها الفيصلة وأن الإسلام قد باد

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وأهله، هذا شأن أهل الريب والشك إذا حصل أمر من الأمور الفظيعة، تحصل لهم هذه الظنون الشنيعة.

ثم أخبر تعالى عنهم أنهم { يقولون } في تلك الحال: {هل لنا من الأمر من شيء } قال الله تعالى: {قل إن الأمر كله لله يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك} ثم فسر ما أخفوه في أنفسهم بقوله: {يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا} أي: يسرون هذه المقالة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قال محمد بن إسحاق بن يسار: فحدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير، عن أبيه، عن عبد الله بن الزبير قال: قال الزبير: لقد رأيتني مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حين اشتد الخوف علينا، أرسل الله علينا النوم، فما منا من رجل إلا ذقنه في صدره، قال: فوالله إني لأسمع قول معتب بن قشير، ما أسمعه إلا كالحلم، يقول {لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا } فحفظتها منه، وفي ذلك أنزل الله تعالى الآية لقول معتب. رواه ابن أبي حاتم.

قال الله تعالى: {قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم } أي: هذا قدرٌ مقدَّر من الله عز وجل، وحُكم حَتْم لا يحاد عنه، ولا مناص منه.

وقوله: {وليبتلي الله ما في صدوركم وليمحص ما في قلوبكم } أي يختبركم بما جرى عليكم، وليميز الخبيث من الطيب، ويظهر أمر المؤمن والمنافق للناس في الأقوال والأفعال، {والله عليم بذات الصدور } أي: بما يختلج في الصدور من السرائر والضمائر.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ثم قال: {إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا } أي: ببعض ذنوبهم السالفة، كما قال بعض السلف: إن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها، وإن من جزاء السيئة السيئة بعدها.

ثم قال تعالى: {ولقد عفا الله عنهم} أي: عما كان منهم من الفرار {إن الله غفور حليم } أي: يغفر الذنب ويحلم عن خلقه، ويتجاوز عنهم.انتهى ملخصاً.

{... وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا... }

وتأمل قوله تعالى حين ذكر سبحانه عدة خزنة جهنم أعاذنا الله منها: {... عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ (٣٠) وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ (٣١)} (المدثر: ٢٧ – ٣١).

وَقَوله تَعَالَى: {وَمَا جعلنَا أَصْحَاب النَّار إِلَى مَلَائِكَة} سَبَب نزُول هَذِه الْآيَة أَن النَّبِي لما أخبر بِعَدَد الزَّبَانِيَة، وَقَالَ أَبُو جهل: أرى مُحَمَّدًا يوعدكم بِتِسْعَة عشر وَأَنْتُم الدهم، أَفلا تقرنون مَعَهم ليعمد كل عشرَة مِنْكُم إِلَى وَاحِد فيدفعه.

وَقَالَ أَبُو الْأسد بن كلدة - وَكَانَ رجلا من بني جمح -: أَنا أتقدمكم على الصِّرَاط، فأدفع عشرَة بمنكبي الْأَيْمن، وَتِسْعَة بمنكبي الْأَيْسَر، ونمر إِلَى الْجنَّة.

وَقَالَ: كلدة بن أسيد: أَنا أكفيكم سَبْعَة عشر، فاكفوني أَنْتُم اثْنَيْنِ؛ فَأنْزل الله تَعَالَى: {وَمَا جعلنَا أَصْحَاب النَّار إِلَّا مَلَائِكَة} أَي: هَؤُلَاءِ التِّسْعَة عشر من

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الْمَلَائِكَة، وَكَيف تطيقونهم؟ وروى أَن الْمُسلمين لما سمعُوا مِنْهُم هَذَا قَالُوا: تقيسون الْمَلَائِكَة بالحدادين؟ أَي: (السجانين).

وَقَوله تَعَالَى: {وَمَا جعلنَا عدتهمْ إِلَّا فتْنَة للَّذين كفرُوا} أَي: منحة وبلية حَتَّى قَالُوا مَا قَالُوا.

وَقَوله: {ليستيقن الَّذين أُوتُوا الْكتاب} أَي: ليستيقن الَّذين أُوتُوا الْكتاب أَن مُحَمَّدًا قَالَ مَا قَالَ من الله تَعَالَى؛ فَإِنَّهُ وَافق هَذَا الْعدَد الَّذين (وعدوا) فِي التَّوْرَاة وَالْإِنْجِيل.

وَقَوله: {ويزداد الَّذين آمنُوا إِيمَانًا} أَي: يزْدَاد الَّذين آمنُوا من أهل الْكتاب إِيمَانًا.

وَقيل: يزْدَاد جَمِيع الْمُؤْمِنُونَ إِيمَانًا إِذا رَأَوْا مَا قَالَه النَّبِي مُوَافقا لما حَكَاهُ أهل الْكتاب.

وَقَوله: {وَلَا يرتاب الَّذين أُوتُوا الْكتاب والمؤمنون} أَي: لَا يشكوا فِي الْعدَد إِذا وجدوا التَّوْرَاة وَالْإِنْجِيل وَالْقُرْآن متفقة على هَذَا الْعدَد.

وَقَوله: {وليقول الَّذين فِي قُلُوبهم مرض والكافرون مَاذَا أَرَادَ الله بِهَذَا مثلا} أَي: كَيفَ ذكر الله هَذَا الْعدَد وَخص الزَّبَانِيَة بِهِ؟ وَهُوَ تَفْسِير قَوْله تَعَالَى: {إِلَّا فتْنَة للَّذين كفرُوا}.

وَقَوله: {كَذَلِك يضل الله من يَشَاء وَيهْدِي من يَشَاء} يَعْنِي: كَمَا أضلّ الْكفَّار بِهَذَا الْعدَد، وَهدى الْمُؤمنِينَ لقبوله، كَذَلِك يضل الله من يَشَاء، وَيهْدِي من يَشَاء بِمَا ينزل من الْقُرْآن.

وَقَوله تَعَالَى: {وَمَا يعلم جنود رَبك إِلَّا هُوَ} روى أَن الْكفَّار لما سمعُوا هَذَا الْعدَد قَالُوا: مَا أقل هَذَا الْعدَد؛ فَأنْزل الله تَعَالَى: {وَمَا يعلم جنود رَبك إِلَّا هُوَ} أَي: لَهُ من الْجُنُود سوى هَذَا الْعدَد مَا لَا يعلم عَددهَا إِلَّا هُوَ.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وَقَوله: {وَمَا هِيَ إِلَّا ذكرى للبشر} أَي: هَذِه الْآيَة عظة وعبرة للبشر.انتهى من تفسير السمعاني (٦/ ٩٥-٩٧).

{عليها تِسْعَةَ عَشَرَ} يعني الزبانية خزنة جهنم فقيل: هم تسعة عشر ملكا وقيل: تسعة عشر صفا من الملائكة والأول أشهر، {وَما جَعَلْنا أَصْحابَ النَّارِ إِلَّا مَلائِكَةً } سبب الآية أنه لما نزل عليها تسعة عشر قال أبو جهل: أيعجز عشرة منكم عن واحد من هؤلاء التسعة عشر أن يبطشوا به (؟!)، فنزلت الآية. ومعناها أنهم ملائكة لا طاقة لكم بهم، ورُوي أن الواحد منهم يرمي بالجبل على الكفار. (٥٤)

{وَما جَعَلْنا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا} وما جعلنا عددهم إلا العدد الذي اقتضى فتنتهم وهو التسعة عشر، وافتتانهم به استقلالهم واستهزاؤهم به واستبعادهم أن يتولى هذا العدد القليل تعذيب أكثر الثقلين، وقوله: {لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ} أي ليكتسبوا اليقين بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم، وصدق القرآن لما رأوا ذلك موافقاً لما في كتابهم. وَيَزْدادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيماناً بالإيمان به، وبتصديق أهل الكتاب له. {وَلا يَرْتابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ وَالْمُؤْمِنُونَ} أي في ذلك وهو تأكيد للاستيقان، وزيادة الإيمان، ونفي لما يعرض للمتيقن المؤمن حيثما تعروه شبهة. {وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ} أى شك أو نفاق، فيكون إخباراً بمكة عما سيكون في المدينة بعد الهجرة. {وَالْكافِرُونَ} الجازمون في التكذيب. {مَاذَا أَرادَ اللَّهُ بِهذا مَثَلًا} أي شيء أراد بهذا العدد المستغرَب استغراب المثل، وقيل لما استبعدوه حسبوا أنه مثل مضروب. {كَذلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ} أى مِثل ذلك المذكور من الإضلال والهدى يضل الكافرين ويهدي المؤمنين. {وَما يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ} جموع خلقه على ما هم عليه. {إِلَّا هُوَ} سبحانه إذ لا سبيل لأحد

---

٥٤ تفسير ابن جزي = التسهيل لعلوم التنزيل (٢/ ٤٢٩)

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

إلى حصر الممكنات والاطلاع على حقائقها وصفاتها وما يوجب اختصاص كل منها بما يخصه من كم وكيف واعتبار ونسبة. {وَما هِيَ} أى وما سقر أو عدة الخزنة فيها أو السورة. {إِلَّا ذِكْرى لِلْبَشَرِ} أى إلا تذكرة لهم. (٥٥)

وتأمل معي أن السورة مكية ومع ذلك جرى فيها ذكر الذين في قلوبهم مرض من أهل الشك والنفاق ليكون الحديث عن تجربة ممتدة عبر الزمان في تقصي اولئك المرضى بالنفاق والشك لما يكون علمه عند الله تعالى، ولا يطلع عليه إلا مَن شاء من عباده أو لا يطلع، فالمؤمنون يزدادون إيمانا بآيات ربهم ويقولون {آمنَّا به كلٌّ من عند ربِّنا}، ويردون ما لا يعلمه إلا الله تعالى إلى ربهم، وأما ما كان السبيل إلى علمه فيردونه إلى عالمه وإلى الذين يستنبطونه منهم وإلى المحكم من كتاب الله تعالى، فيهمون المتشابه في نور المحكم فيهتدوا ويتيقنوا ويزدادوا إيمانا. والحمد لله رب العالمين.

٥٥ تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل (٥/ ٢٦٢)

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

{ ما ننسخ من آية أو ننسها...}

قوله تعالى: { ما نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِها نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْها أَوْ مِثْلِها أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} (البقرة: **106**).

يقول ابن الجوزي: قوله تعالى: {ما نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ} الآية.

سبب نزولها: أن اليهود قالت لما نسخت القبلة: إن محمداً يحل لأصحابه إذا شاء، ويحرم عليهم إذا شاء فنزلت هذه الآية.

قال الزجاج: النسخ في اللغة: إبطال شيءٍ وإقامة آخر مقامه، تقول العرب: نسخت الشمس الظل: إذا أذهبته وحلت محله.

وفي المراد بهذا النسخ ثلاثة أقوال: أحدها: رفع اللفظ والحكم.

والثاني: تبديل الآية بغيرها. رويا عن ابن عباس، والأول قول السدي، والثاني قول مقاتل.

والثالث: رفع الحكم مع بقاء اللفظ، رواه مجاهد عن أصحاب ابن مسعود، وبه قال أبو العالية.

وقرأ ابن عامر: «ما نُنْسِخ» بضم النون، وكسر السين. قال أبو علي: أي: ما نجده منسوخاً كقولك: أحمدت فلاناً، أي: وجدته محموداً، وإنما يجده منسوخاً بنسخه إياه (قلتُ – جامعه: فتعود هذه القراءة على معنى القراءة بفتح النون).

وقوله تعالى: {أَوْ نُنْسِها}، قرأ ابن كثير وأبو عمرو: «ننسأها» بفتح النون مع الهمزة، والمعنى: نؤخرها. قال أبو زيد: نسأت الإبل عن الحوض، فأنا أنسأها: إذا أخرتها، ومنه: النسيئة في البيع.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وفي معنى نؤخرها ثلاثة أقوال: أحدها: نؤخرها عن النسخ فلا ننسخها، قاله الفراء. والثاني: نؤخر إنزالها، فلا ننزلها البتة. والثالث: نؤخرها عن العمل بها بنسخنا إياها، حكاهما أبو علي الفارسي.

وقرأ سعد بن أبي وقاص «تنسها» بتاء مفتوحة ونون. وقرأ سعيد بن المسيب والضحاك «تنسها» بضم التاء وفتح السين.

وقرأ نافع: «أو ننسها» بنونين: الأولى مضمومة، والثانية ساكنة وكسر السين. أراد: أو ننسك إياها، من النسيان. (قال العلماء: فمعناه نتركها لا نبدلها. وهو مروي عن ابن عباس على معنى: نأمرك بتركها، كما قال {نَسُواْ اللهَ فَنَسِيَهُمْ} [التوبة: **67**]، أي: تركوه فتركهم. / وهذا إنما يصح على قراءة من قرأ " نَنْسِهَا " بالفتح.)[٥٦].

قوله تعالى: {نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْها}، قال ابن عباس: بألين منها، وأيسر على الناس.

قوله تعالى: {أَوْ مِثْلِها}، أي: في الثواب والمنفعة، فتكون الحكمة في تبديلها بمثلها الاختبار. أَلَمْ تَعْلَمْ لفظه لفظ الاستفهام، ومعناه التوقيف والتقرير. والملك في اللغة: تمام القدرة واستحكامها، فالله عزّ وجلّ يحكم بما يشاء على عباده ويغيّر ما يشاء من أحكام.[٥٧]

وقال العلامة ابن عطية في تفصيل هذه الأقوال:

وقوله تعالى: {ما نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِها} الآية، النسخ في كلام العرب على وجهين: أحدهما النقل كنقل كتاب من آخر، والثاني الإزالة، فأما الأول فلا مدخل له في هذه الآية، وورد في كتاب الله تعالى في قوله تعالى: {إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ ما كُنْتُمْ

---

٥٦ الهداية الى بلوغ النهاية لأبي طالب المكي المقرأ المفسر(**1/ 386**)

٥٧ زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي (**1/ 98**) بتصرف وزيادة.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

تَعْمَلُونَ} (الجاثية: 29)، وأما الثاني الذي هو الإزالة فهو الذي في هذه الآية، وهو منقسم في اللغة على ضربين: أحدهما يثبت الناسخ بعد المنسوخ أى يبصبح محله كقولهم نسخت الشمس الظل، والآخر لا يثبت كقولهم «نسخت الريح الأثر». وورد النسخ في الشرع حسب هذين الضربين، والناسخ حقيقة هو الله تعالى، ويسمى الخطاب الشرعي ناسخا إذ به يقع النسخ، وحد الناسخ عند حذاق أهل السنة: الخطاب الدال على ارتفاع الحكم الثابت، بالخطاب المتقدم على وجه لولاه لكان ثابتا مع تراخيه عنه.

والنسخ جائز على الله تعالى عقلا لأنه ليس يلزم عنه محال ولا تغيير صفة من صفاته تعالى، وليست الأوامر متعلقة بالإرادة فيلزم من النسخ أن الإرادة تغيرت، ولا النسخ لطروّ علم، بل الله تعالى يعلم إلى أي وقت ينتهي أمره بالحكم الأول ويعلم نسخه بالثاني. والبداء لا يجوز على الله تعالى لأنه لا يكون إلا لطروء علم أو لتغير إرادة، وذلك محال في جهة الله تعالى، وجعلت اليهود النسخ والبَداء واحدا، ولذلك لم يجوزوه فضلّوا.

وقرأ جمهور الناس «ما ننسخ» بفتح النون، من نسخ، وقرأت طائفة «ننسخ»، بضم النون من «أنسخ»، وبها قرأ ابن عامر وحده من السبعة، قال أبو علي الفارسي: ليست لغة لأنه لا يقال نسخ وأنسخ بمعنى، ولا هي لتعدية لأن المعنى يجيء ما نكتب من آية أي ما ننزل فيجيء القرآن كله على هذا منسوخا، وليس الأمر كذلك، فلم يبق إلا أن يكون المعنى ما نجده منسوخا، كما تقول: أحمدت الرجل وأبخلته بمعنى وجدته محمودا أو بخيلا، قال أبو علي: وليس نجده منسوخا إلا بأن ننسخه فتتفق القراءتان في المعنى وإن اختلفتا في اللفظ.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رحمه الله (ابن عطية): وقد خرَّج قراءٌ معنى هذه القراءة على وجهين:

أحدهما: أن يكون المعنى ما نكتب وننزل من اللوح المحفوظ، أو ما نؤخر فيه ونترك فلا ننزله؛ أي ذلك نفعل، فإنا نأتي بخير من المؤخر المتروك أو بمثله، فيجيء الضميران في {مِنْها} و{مِثْلِها} عائدين على الضمير في {نُنْسِها}، (أى الآية المنسوخة أو المنسأة، والنسخ يكون هنا بمعنى الكتابة والإنزال).

والمعنى الآخر: أن يكون نَنْسَخْ من النسخ بمعنى الإزالة ويكون التقدير ما ننسخك أي نبيح لك نسخه، كأنه لما نسخها الله أباح لنبيه تركها بذلك النسخ، فسمى تلك الإباحة إنساخا، و{ما} شرطية وهي مفعولة ب نَنْسَخْ، ونَنْسَخْ جزم بالشرط (أى: إن ننسخ).

واختلف القراء في قراءة قوله تعالى:{نُنْسِها}، فقرأ نافع وحمزة والكسائي وعاصم وابن عامر وجمهور من الناس «ننسها» بضم النون الأولى وسكون الثانية وكسر السين وترك الهمزة، وهذه من أنسى المنقول من نسي، وقرأت ذلك فرقة كما تقدم إلا أنها همزت بعد السين {ننسأها}، فهذه بمعنى التأخير، تقول العرب أنسأت الديْن وغيره أنسؤه إنساءاً إذا أخَّرته. (٥٨)

---

٥٨ قال ابن عطية: وقرأت طائفة «أو ننسَها» بفتح النون الأولى وسكون الثانية وفتح السين، وهذه بمعنى الترك، ذكرها مكي ولم ينسبها، وذكرها أبو عبيد البكري في كتاب اللآلي عن سعد بن أبي وقاص، وأراه وهم، وقرأ سعد بن أبي وقاص «أو تنسها» على مخاطبة النبي صلى الله عليه وسلم ونون بعدها ساكنة وفتح السين، هكذا قال أبو الفتح وأبو عمرو الداني، فقيل لسعد إن سعيد بن المسيب يقرؤها بنون أولى مضمومة وسين مكسورة (نُنسِها) فقال: إن القرآن لم ينزل على المسيب ولا على آل المسيب، وتلا قوله تعالى: {سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنْسى} (الأعلى: **6**)، {وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذا نَسِيتَ} (الكهف: **24**)، وقرأ سعيد بن المسيب فيما ذكر عنه أيضا «أو تُنسَها» بضم التاء أولا وفتح السين وسكون النون بينهما، وهذه من النسيان، وقرأ الضحاك بن مزاحم وأبو رجاء «ننسِّها» بضم النون الأولى وفتح الثانية وسين مكسورة مشددة، وهذه أيضا من النسيان.(قلتُ – جامعه: ونلاحظ هنا أنه فيما عدا القراءتين الأوليين فما ذكر بعد آحاد أو شواذ من القراءات، تذكر عن الرجل والرجلين، بسند ويغيره). وقرأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

قال القاضي أبو محمد رحمه الله بعد ذكر القراءات واختلافها في الآية: وهذه القراءات لا تخلو كل واحدة منها أن تكون من النسيء أو الإنساء بمعنى التأخير، أو تكون من النسيان.

والنسيان في كلام العرب يجيء في الأغلب ضد الذكر، وقد يجيء بمعنى الترك، فالمعاني الثلاثة مقولةٌ في هذه القراءات، فما كان منها يترتب في لفظة النسيان الذي هو ضد الذكر. فمعنى الآية: ما ننسخ من آية أو نقدر نسيانك لها فتنساها حتى ترتفع جملة وتذهب فإنا نأتي بما هو خير منها لكم أو مثله في المنفعة.

وما كان من هذه القراءات يحمل على معنى الترك فإن الآية معه تترتب فيها أربعة معان:

أحدها: ما ننسخ على وجوه النسخ أو نترك غير مُنَزَّلٍ عليك فإنا لا بد أن ننزل رفقا بكم خيرا من ذلك أو مثله حتى لا ينقص الدين عن حد كماله.

والمعنى الثاني: أو نترك تلاوته وإن رفعنا حكمه.

والمعنى الثالث: أو نترك حكمه وإن رفعنا تلاوته.

وابن عباس وإبراهيم النخعي وعطاء بن أبي رباح ومجاهد وعبيد ابن عمير وابن كثير وأبو عمرو «ننسأها» بنون مفتوحة وأخرى بعدها ساكنة وسين مفتوحة وألف بعدها مهموزة، وهذه من التأخير، تقول العرب: نسأت الإبل عن الحوض أنسؤها نسأ أي أخرتها، وكذلك يقال:

أنسأ الإبل إذا زاد في ظمئها يوما أو يومين أو أكثر من ذلك بمعنى أخَّرها عن الورود على الماء، وقرأت فرقة مثل هذه القراءة إلا أنها بتاء مفتوحة أولا على مخاطبة النبي صلى الله عليه وسلم وإسناد الفعل إليه (تنسَأها)، وقرأ أبو حيوة مثل ذلك إلا أنه ضم التاء أولا(تُنسِأها)، وقرأ أبي بن كعب «أو ننسِك» بضم النون الأولى وسكون الثانية وسين مكسورة وكاف مخاطبة، وفي مصحف سالم مولى أبي حذيفة «أو ننسكها» مثل قراءة أبيّ إلا أنه زاد ضمير الآية.

وقرأ الأعمش «ما ننسك من آية أو ننسخها نجيء بمثلها»، وهكذا ثبتت في مصحف عبد الله بن مسعود.

راجع تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (**1/ 193**)

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

والمعنى الرابع: أو نتركها غير منسوخة الحكم ولا التلاوة، ويجيء الضميران في {مِنْها أَوْ مِثْلِها} عائديْن على المنسوخة فقط، وكان الكلام إن نسخنا أو أبقينا فإنا نأتي بخير من المنسوخة أو مثلها.

وما كان من هذه القراءات يحمل على معنى التأخير، فإن الآية معه تترتب فيها المعاني الأربعة التي في الترك، أولها: ما ننسخ أو نؤخر إنزاله، والثاني: ما ننسخ النسخ الأكمل أو نؤخر حكمه وإن أبقينا تلاوته، والثالث: ما ننسخ النسخ الأكمل أو نؤخر تلاوته وإن أبقينا حكمه، والرابع: ما ننسخ أو نؤخره مثبتا لا ننسخه، ويعود الضميران كما ذكرنا في الترك، وبعض هذه المعاني أقوى من بعض، لكن ذكرنا جميعها لأنها تحتمل، وقد قال «جميعها» العلماء إما نصا وإما إشارة فكمَّلناها.

وقال الزجاج: إن القراءة «أو ننسها» بضم النون وسكون الثانية وكسر السين لا يتوجه فيها معنى الترك لأنه لا يُقال أنسى بمعنى ترك، وقال أبو علي وغيره: ذلك متجه لأنه بمعنى نجعلك تتركها، وكذلك ضعَّف الزجاج أن تُحمل الآية على النسيان الذي هو ضد الذكر، وقال: إن هذا لم يكن للنبي صلى الله عليه وسلم ولا نسي قرآنا، وقال أبو علي وغيره: ذلك جائز، وقد وقع، ولا فرق بين أن ترفع الآية بنسخ أو بتنسية، واحتج الزجاج بقوله تعالى: {وَلَئِنْ شِئْنا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ} (الإسراء: **86**)، أي لم نفعل، قال أبو علي: معناه لم نذهب بالجميع.

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رحمه الله: والآية في الإسراء على معنى إزالة النعمة، وقد حكى الطبري القول عمَّن هو أقدم من الزجاج، ورد عليه، والصحيح في هذا أن نسيان النبي صلى الله عليه وسلم لما أراد الله تعالى أن ينساه ولم يرد أن يثبت

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

قرآنا جائز. فأما النسيان الذي هو آفة في البشر فالنبي صلى الله عليه وسلم معصوم منه قبل التبليغ وبعد التبليغ ما لم يحفظه أحد من أصحابه، وأما بعد أن يحفظ فجائز عليه ما يجوز على البشر لأنه قد بلَّغ وأدى الأمانة، ومنه الحديث حين أسقط آية، فلما فرغ من الصلاة قال: أفي القوم أبيّ؟ قال: نعم يا رسول الله، قال: فلم لم تذكِّرني؟ قال: حسبت أنها رفعت، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: لم ترفع ولكني نسيتها.

(قلتُ – جامعه: رواه أحمد في مسنده قال: حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ سَعِيدٍ، عَنْ سُفْيَانَ، حَدَّثَنَا سَلَمَةُ بْنُ كُهَيْلٍ، عَنْ ذَرٍّ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبْزَى، عَنْ أَبِيهِ: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَلَّى فِي الْفَجْرِ فَتَرَكَ آيَةً، فَلَمَّا صَلَّى قَالَ: " أَفِي الْقَوْمِ أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ؟ " قَالَ أُبَيٌّ: يَا رَسُولَ اللهِ نُسِخَتْ آيَةُ كَذَا وَكَذَا، أَوْ نُسِّيتَهَا؟ قَالَ: " نُسِّيتُهَا ").[٥٩]

---

٥٩ قال محققو المسند طبعة الرسالة (**24/ 80**): إسناده صحيح على شرط الشيخين. سفيان: هو الثوري. وذر: هو ابن عبد الله المرْهبي الهَمْداني.وأخرجه النسائي في "الكبرى" (**8240**) من طريق يحيى بن سعيد، بهذا الإسناد. وأخرجه البخاري في "القراءة خلف الإمام" (**193**) من طريق أبي نعيم الفضل بن دكين، عن سفيان، به. وقد أورده الهيثمي في "مجمع الزوائد" **2/69**، وقال: رواه أحمد والطبراني، ورجاله رجال الصحيح.

وسيأتي في "المسند" **5/123** من "زوائد" عبد الله بن أحمد قال: حدثنا يحيى بن داود الواسطي، حدثنا إسحاق بن يوسف الأزرق، عن سفيان، عن سلمة بن كهيل، عن ذر، عن سعيد بن عبد الرحمن بن أبزى، عن أبيه، عن أُبي بن كعب، فذكر نحوه.

قال السندي: قوله: قال أُبي: يا رسول الله ... الخ: فهم أُبيٌّ أن مراده بما قال: هو أن يعرف أن أُبياً متنبه لذلك أم لا، فأجاب بأنه متنبه.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

قال ابن عطية: ولفظة خير في الآية صفة تفضيل، والمعنى أنفع لكم أيها الناس في عاجلٍ إن كانت الناسخة أخف، وفي آجلٍ بالثواب إن كانت أثقل، وبمثلها إن كانت مستوية، (قلتُ- جامعه: فالأفضلية هنا بالنسبة للناس وانتفاعهم بالآيات لا بالنسبة للآيات في ذاتها).

وقوله تعالى: {أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} ظاهره الاستفهام ومعناه التقرير، وهذا كله على أن القصد بمخاطبة النبي صلى الله عليه وسلم مخاطبة أمته. ومعنى الآية أن الله تعالى ينسخ ما يشاء، ويثبت ما يشاء، ويفعل في أحكامه ما يشاء، هو قدير على ذلك وعلى كل شيء، وهذا لإنكار اليهود النسخ. [٦٠]

---

٦٠ تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (**1/ 190**)

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

{ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ...} الآية

القول في تفسير قوله: {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ (آل عمران7)}

والمعنى: هو وحده الذي أنزل عليك القرآن: منه آيات واضحات الدلالة، هن أصل الكتاب الذي يُرجع إليه عند الاشتباه، ويُرَدُّ ما خالفه إليه، ومنه آيات أخر متشابهات تحتمل بعض المعاني، لا يتعيَّن المراد منها إلا بضمها إلى المحكم، فأصحاب القلوب المريضة الزائغة، لسوء قصدهم يتبعون هذه الآيات المتشابهات وحدها؛ ليثيروا الشبهات عند الناس، كي يضلوهم، ولتأويلهم لها على مذاهبهم الباطلة. ولا يعلم حقيقة معاني هذه الآيات إلا الله. والمتمكنون في العلم يقولون: آمنا بهذا القرآن، كله قد جاءنا من عند ربنا على لسان رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، ويردُّون متشابهه إلى محكمه، وإنما يفهم ويعقل ويتدبر المعاني على وجهها الصحيح أولو العقول السليمة.ا.هـ [٦١]

قال أبو جعفر الطبرى:... "منه آيات محكمات" وأما"المحكمات"، فإنهن اللواتي قد أحكمن بالبيان والتفصيل، وأثبتت حججهن وأدلتهن على ما جُعلن أدلة عليه من حلالٍ وحرامٍ، ووعدٍ ووعيدٍ، وثوابٍ وعقاب، وأمرٍ وزجر، وخبرٍ ومَثَل، وعظةٍ وعِبرة،

---

٦١ التفسير الميسر على هامش المصحف الشريف في برنامج آيات الإلكتروني (مشروع المصحف الإلكتروني بجامعة الملك سعود).

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وما أشبه ذلك. ثم وصف جل ثناؤه: هؤلاء "الآيات المحكمات"، بأنهن: "هُنّ أمّ الكتاب". يعني بذلك: أنهن أصل الكتاب الذي فيه عماد الدين والفرائض والحدود، وسائر ما بالخلق إليه الحاجة من أمر دينهم، وما كلفوا من الفرائض في عاجلهم وآجلهم.

وإنما سماهن "أمّ الكتاب"، لأنهن معظم الكتاب، وموضع مَفزَع أهله عند الحاجة إليه، وكذلك تفعل العرب، تسمي الجامعَ معظم الشيء "أمًّا" له..

وأما قوله: "وأخَرُ" فإنها جمع "أخْرَى". "متشابهات"، فإن معناه: متشابهات في التلاوة، مختلفات في المعنى، كما قال جل ثناؤه: {وَأُتُواْ بِهِ مُتَشَابِهاً} (البقرة: **25**)، يعني في المنظر، مختلفاً في المطعم..ا.هـ.[٦٢]

قال ابن كثير في تفسيره موضحا: أَيْ: تَحْتَمِلُ دَلَالَتُهَا مُوَافَقَةَ الْمُحْكَمِ، وَقَدْ تَحْتَمِلُ شَيْئًا آخَرَ مِنْ حَيْثُ اللَّفْظِ وَالتَّرْكِيبِ، لَا مِنْ حَيْثُ الْمُرَادِ.....

قال العلامة ابن عاشور في تفسير التحرير: والإحكام في الأصل المنع، قال جرير:

أبني حنيفة أحْكِموا سُفَهَاءَكم ***إنّي أخاف عليكُم أنْ أغضبَا...

واستُعمل الإحكام في الإتقان والتوثيق؛ لأنّ ذلك يمنع تطرّق ما يضادّ المقصود إليه، ولذا سمّيت الحِكْمة حكْمَة. وأطلق المحكم في هذه الآية على واضح الدلالة على سبيل الاستعارة لأنّ في وضوح الدلالة، منعاً لتطرّق الاحتمالات الموجبة للتردّد في المراد.

---

٦٢ راجع جامع البيان للطبري **3/ 170-175**.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وأطلق التشابه هنا على خفاء الدلالة على المعنى، على طريقة الاستعارة لأنّ تطرّق الاحتمال في معاني الكلام يفضي إلى عدم تعيّن أحد الاحتمالات، وذلك مثل تشابُه الذوات في عدم تمييز بعضها عن بعض.

وقد أشارت الآية: إلى أنّ آيات القرآن صنفان: محكمات وأضدادها، التي سميت متشابهات، ثم بيّن أنّ المحكمات هي أمّ الكتاب، فعلمنا أنّ المتشابهات هي أضداد المحكمات (أي أقل الكتاب)، ثم أعقب ذلك بقوله: { فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله } (آل عمران: **7**) أي تأويله الذي لا قِبل لأمثالهم به فعلمنا أنّ المتشابهات هي التي لم يتّضح المقصود من معانيها، فعلمنا أنّ صفة المحكمات، والمتشابهات، راجعة إلى ألفاظ الآيات.

ووصف المحكمات بأنّها أمُّ الكتاب فاحتمل أن يكون المراد من الأمّ الأصل، أو المرجع، وهما متقاربان: أي هنّ أصل القرآن أو مرجعه، وليس يناسب هذين المعنيين إلاّ دلالةُ القرآن؛ إذ القرآن أنزل للإرشاد والهدي، فالمحكمات هي أصول الاعتقاد والتشريع والآداب والمواعظ، وكانت أصولاً لذلك: باتّضاح دلالتها، بحيث تدل على معانٍ لا تحتمل غيرها أو تحتمله احتمالاً ضعيفاً غير معتَدٍّ به، وذلك كقوله: { ليس كمثله شي } (الشورة: **11**) { لا يُسأل عمّا يفعل } (الأنبياء: **23**) { يريد اللّه بكم اليسر } (البقرة: **185**) { واللّه لا يحبّ الفساد } (البقرة: **205**) { وأمّا من خاف مقام ربّه ونهى النفس عن الهوى فإنّ الجنة هي المأوى } (النازعات: **40**). وباتّضاح معانيها بحيث تتناولها أفهام معظم المخاطَبين بها وتتأهّل لفهمها فهي أصل القرآن المرجوعُ إليه في حمل معاني غيرها عليها للبيان أو التفريع.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

والمتشابهات مقابل المحكمات، فهي التي دلّت على معانٍ تشابهت في أن يكون كلٌّ منها هو المراد. ومعنى تشابهها: أنّها تشابهت في صحة القصد إليها، أي لم يكن بعضها أرجح من بعض. أو يكون معناها صادقاً بصورٍ كثيرة متناقضة أو غير مناسبةٍ لأن تكون مراداً، فلا يُتبيَّن الغرض منها، فهذا وجه تفسير الآية فيما أرى.ا.هـ.(٦٣)

قال تعالى: { فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ}(أل عمران**7**).

قال شيخ المفسرين الطبري: يعني فأما الذين في قلوبهم ميل عن الحق وانحرافٌ عنه.. {فيتبعون ما تشابه منه}، ما تشابهت ألفاظه وتصرَّفت معانيه بوجوه التأويلات، ليحققوا بادّعائهم الأباطيلَ من التأويلات في ذلك ما هم عليه من الضلالة والزّيغ عن محجة الحقّ، تلبيسًا منهم بذلك على من ضعفت معرفته بوجوه تأويل ذلك وتصاريف معانيه..

عن ابن عباس: "فيتبعون ما تشابه منه"، فيحملون المحكم على المتشابه، والمتشابه على المحكم، ويلبِّسون، فلبَّس الله عليهم. وعن مجاهد قال: الباب الذي ضلُّوا منه وهلكوا فيه ابتغاءَ تأويله. (٦٤)

أي: يتركون المحكم الواضح ويذهبون إلى المتشابه، ويعكسون الأمر فيحملون المحكم على المتشابه.(٦٥)

---

٦٣ راجع التحرير والتنوير للطاهر ابن عاشور (**3/ 152- 167**).

٦٤ راجع تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (**6/ 185-176**) وكذا تفسير ابن المنذر (**1/122**)، وتفسير ابن أبي حاتم (**2/295**).

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

قال ابن الجوزي- رحمه الله: قوله تعالى: { فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ }.. في هؤلاء القوم أربعة أقوال: أحدها: أنهم الخوارج، قاله الحسن. والثاني: المنافقون، قاله ابن جريج. والثالث: وفد نجران من النصارى، قاله الربيع. والرابع: اليهود، طلبوا معرفة بقاء هذه الأمة من حساب الجُمّل، قاله ابن السائب.(٦٦)

قال ابن جرير رضى الله عنه: وقال آخرون: بل عنى الله عز وجل بذلك كل مبتدع في دينه بدعة مخالفةً لما ابتعث به رسوله محمدًا صلى الله عليه وسلم، بتأويل يتأوَّله من بعض آي القرآن المحتملة التأويلات...

قال: وهذه الآية وإن كانت نزلت فيمن ذكرنا أنها نزلت فيه من أهل الشرك، فإنه معنيّ بها كل مبتدع في دين الله بدعةً فمال قلبه إليها، تأويلا منه لبعض مُتشابه آي القرآن، ثم حاجّ به وجادل به أهل الحق، وعدل عن الواضح من أدلة آيه المحكمات، إرادةً منه بذلك اللبس على أهل الحق من المؤمنين، وطلبًا لعلم تأويل ما تشابه عليه من ذلك، كائنًا من كان، وأيّ أصناف المبتدعة كان من أهل النصرانية كان أو اليهودية أو المجوسية، أو كان سَبئيًا (شيعيا رافضيا غاليا)، أو حروريًّا (من الخوارج)، أو قدريًّا (من المعتزلة)، أو جهميًّا (من نفات الصفات)، كالذي قال صلى الله عليه وسلم: "فإذا رأيتم الذين يجادلون به، فهم الذين عنى الله، فاحذروهم".(٦٧)

---

٦٥ تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: **122**)

٦٦ زاد المسير في علم التفسير (**1/ 260**).

٦٧ راجع تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (**6/ 185-176**)

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

قال ابن جرير: وأما معنى "التأويل" في كلام العرب، فإنه التفسير والمرجع والمصير والجزاء.. وأصلهُ من: "آل الشيء إلى كذا" – إذا صار إليه ورجع "يَؤُول أوْلا" و "أوَّلتُه " أى صيَّرته وجعلته إليه.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله في «تفسيره» **1/ 346**: وقوله تعالى:{ وَما يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ} اختلف القراء في الوقف هاهنا فقيل على الجلالة كما تقدم عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: التفسير على أربعة أنحاء، فتفسير لا يعذر أحد في فهمه، وتفسير تعرفه العرب من لغاتها، وتفسير يعلمه الراسخون في العلم، وتفسير لا يعلمه إلّا الله... وعن أبي مالك الأشعري أنه سمع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول: «لا أخاف على أمتي إلّا ثلاث خلالٍ: أن يكثر لهم المال فيتحاسدوا فيقتتلوا، وأن يفتح لهم الكتاب فيأخذه المؤمن يبتغي تأويله {وَما يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ، وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ.. الآية}، وأن يزداد علمهم فيضيِّعوه ولا يُسألون عنه» غريب جدا...

وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن ابن العاص عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: «إن القرآن لم ينزل ليكذِّب بعضه بعضا، فما عرفتم منه فاعملوا به، وما تشابه منه فآمنوا به» (قلتُ– الباحث: وإسناده حسن).

وقال عبد الرزاق أنبأنا معمر عن ابن طاووس عن أبيه قال: كان ابن عباس يقرأ {وما يعلم تأويله إلّا الله} ويقول:(أى نحن) الراسخون آمنا به.

ومنهم من يقف على قوله (والراسخون في العلم)، وتبعهم كثير من المفسرين وأهل الأصول، وقالوا: الخطاب بما لا يُفهم بعيد، وقد روي عن ابن عباس أنه قال: أنا

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

من الراسخين الذين يعلمون تأويله. وقال مجاهد: والراسخون في العلم يعلمون تأويله ويقولون آمنا به.

وقال محمد بن جعفر بن الزبير: (وما يعلم تأويله) الذي أراد ما أراد (إلّا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به) ثم ردوا تأويل المتشابهات على ما عرفوا من تأويل المحكمة التي لا تأويل لأحد فيها إلا تأويل واحد، فاتسق بقولهم الكتاب، وصدق بعضه بعضا، فنفذت الحجة، وظهر به العذر، وزاح به الباطل، ودفع به الكفر.انتهى.

قال الطبري: يعني ب"الراسخين في العلم"، العلماء الذين قد أتقنوا علمهم ووَعَوْه فحفظوه حفظًا، لا يدخلهم في معرفتهم وعلمهم بما علموه شَكّ ولا لُبْس. وأصل ذلك من:"رسوخ الشيء في الشيء"، وهو ثبوته وولوجه فيه. يقال منه:"رسخ الإيمان في قلب فلان، فهو يَرْسَخُ رَسْخًا ورُسُوخًا".(٦٨)

وقد قال جماعة من أهل التأويل: إنما سمى الله عز وجل هؤلاء القوم"الراسخين في العلم"، بقولهم:"آمنا به كل من عند ربنا".

وأما تأويل قوله:"يقولون آمنا به"، فإنه يعني أنّ الراسخين في العلم يقولون: صدَّقنا بما تشابه من آي الكتاب، وأنه حقّ وإن لم نَعلم تأويله،..."كل من عند ربنا"، كلّ المحكم من الكتاب والمتشابه منه "من عند ربنا"، وهو تنزيله ووحيه إلى نبيه محمد

---

٦٨ قال ابن كثير رحمه الله تعالى: وَقَالَ ابْنُ الْمُنْذِرِ فِي تَفْسِيرِهِ: بسنده عن نَافِعُ بْنُ يَزِيدَ قَالَ: يُقَالُ: الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ الْمُتَوَاضِعُونَ لِلَّهِ، الْمُتَذَلِّلُونَ لِلَّهِ فِي مَرْضَاتِهِ، لَا يَتَعَاطَوْنَ (بل ربما يتعاظمون) مَنْ فَوْقَهُمْ، وَلَا يُحَقِّرُونَ مَنْ دُونَهُمْ. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: {وَمَا يَذَّكَّرُ إِلا أُولُو الأَلْبَابِ} أَيْ: إِنَّمَا يَفْهَمُ وَيَعْقِلُ وَيَتَدَبَّرُ الْمَعَانِيَ عَلَى وَجْهِهَا أُولُو الْعُقُولِ السَّلِيمَةِ أَوِ الْفُهُومِ الْمُسْتَقِيمَةِ. ا.هـ.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

صلى الله عليه وسلم. {وَمَا يَذَّكَّرُ إِلا أُولُو الأَلْبَابِ }: وما يتذكر ويتّعظ وينزجر عن أن يقول في متشابه آي كتاب الله ما لا علم له به، إلا أولو العقول والنهى.) ا.هـ.[٦٩]

٦٩ راجع تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (**6/ 185-176**).

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

{الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا}

في قوله تعالى {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا} [المائدة: 3].. قيل: إن الأديان الحق كلها جارية مجرى دين واحد، وكان قبل الإسلام في الشيء بين إفراط وتفريط بالإضافة إلى شرعيتها، وذلك على حسب ما كان يقتضي حكمة الله في كل زمان فكمَّله الله تعالى بالنبي - صلى الله عليه وسلم -، وجعله وسطاً مصوناً عن الإفراط والتفريط، كما قال تعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا}، وكمله وتممه به صلى الله عليه وسلم كما قال عليه الصلاة والسلام: (بُعثت لأُتمم مكارم الأخلاق). وقال: (إن مثل الأنبياء كمثل بيت ترك بينه موضعُ لبنة فكنت اللبنة). فهذا معنى قوله: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ}.

وهذا هو الذي اقتضى أن تكون شريعته مؤبَّدة لا نسخ بعدها ولا تغيير، فالأشياء في التغيير والتنقل ما لم تكمل فإذا كملت فتغيرها فساد لها، ولهذا قال: {فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ}،

ونُبِّه بقوله تعالى: {وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا} على أن الإسلام هو الدين المرتضى على الإطلاق لا تبديل له ولا تغيير، وسائر الأديان مثله كان مرتضى في وقتٍ دون وقت، وعلى وجهٍ دون وجه، ولقومٍ دون قوم، وهذا الدين بعد أن شُرِع فهو مرتضىً في كل وقت، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام في موسى عليه السلام: (لو كان حيا ما وسعه إلا اتباعي).

ولأجل ذلك قال تعالى: {وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ}. وقال: {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الدِّينِ كُلِّهِ} الآية. فقوله تعالى: {اليومَ} إشارة إلى زمان النبي - صلى الله عليه وسلم..

فإن قيل: كمَّل الدين النبي - صلى الله عليه وسلم -، وقد حكم تعالى أن دينه هو دين إبراهيم حيث قال: {مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا}. قيل: نبَّه تعالى أن هذا الدين الذي هو دين إبراهيم من حيث أنهما داعيان إلى الحق نفسه، ومشتركان في أصول الشريعة، لكن ما شُرِع على لسان إبراهيم كان مبدأ الإسلام، وما شُرِع على لسان محمد - صلى الله عليه وسلم - خاتمة الإسلام.

وإن قيل: إن ذلك يقتضي أن يكون الأديان كلها ناقصة.

قيل: الكامل والناقص من الأسماء المضافة في معناها (أى النسبية) التي تقال باعتبار بعضها بعضا، فالصبي إذا اعتُبر بالرجلِ فهو غير كامل، وإذا اعتبر بمَن هو على سنه فهو كامل، إذا لم يكن مذموما؛ فكذلك دين الأنبياء قبل النبي - صلى الله عليه وسلم - إذا اعتبر بأهل زمانهم كان كاملاً، وإذا اعتبر بدين النبي - صلى الله عليه وسلم - وزمانه لم يكن كاملاً وليس النقصان المستعمل هو النقص المذموم فلفظة ناقص تستعمل على وجهين.

وإن قيل: ما وجه فائدة قوله تعالى: {وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا} بعد قوله: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ}؟قيل: لما بيَّن تعالى أنه أكمل دينهم؛ بيَّن بعده أن ذلك الدين هو الإسلام وقد رضيته كما قال تعالى: {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ}.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وقوله: {وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي} أضاف النعمة إلى نفسه تشريفاً لها. فلا نعمة أعظم من نعمة الإسلام يضيفها الله تعالى إلى ذاته العلية.[٧٠]

نزلت هذه الآية يوم الجمعة، يوم عرفة بعد العصر في حجة الوداع، والنبي صلى الله عليه وسلم واقف بعرفات على ناقته العضباء، فكادت عضد الناقة تندق من ثقلها فبركت.

وقيل إنها آخر ما نزل من القرآن.

وروى البخاري عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رجلا من اليهود قال له: يا أمير المؤمنين آية في كتابكم تقرءونها، لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيدا، قال: أية آية؟ قال: اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا، فقال عمر: قد عرفنا ذلك اليوم والمكان الذي نزلت فيه على النبي صلى الله عليه وسلم وهو قائم بعرفة يوم الجمعة، أشار عمر إلى أن ذلك اليوم كان عيدا لنا.

وكانت هذه الآية نعي النبي صلى الله عليه وسلم وعاش بعدها إحدى وثمانين يوما، ومات يوم الإثنين بعد ما زاغت الشمس لليلتين خلتا من شهر ربيع الأول سنة إحدى عشرة من الهجرة.(أفاده البغوي في تفسيره).

---

٧٠ من تفسير الراغب الأصفهاني (**4/ 266**) بتصرف يسير.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

بنيان الإسلام

إن الحديث عن الإسلام كبناءٍ ضخم راسخ يعين كثيرا على تصور المعنى الحقيقي لهذا الدين.

وإنني استلهم هذا المعنى من مفهوم الآية الكريمة التي تتحدث عن مسجد الضرار الذي بناه جماعة من المنافقين ليحاربوا الله ورسوله؛ فجاء الخطاب الرباني ليبين أن بنيانهم هذا ما هو إلا انعكاس لبنية الإسلام في قلوب هؤلاء، وهى بنية هشة مقصودها خداع المؤمنين، على عكس البناء الإيماني في قلوب المؤمنين الذي هو بناء قوى متين على أسس ثابتة وأعمدة راسخة تمتد بين الأرض والسماء.

وفي هذا يقول الله تعالى: {وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (107) لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ (108) أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (109) لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (110)} (التوبة: 107 – 110).

والمعنى: {أفمن أسَّس} بنيان دينه على قاعدة قوية محْكَمة وهي الحق الذي هو تقوى الله ورضوانه {خَيْرٌ أَمْ مَنْ } أسسه على قاعدة هي أضعف القواعد وأرخاها

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وأقلها بقاء، وهو الباطل والنفاق الذي مثله مثل {شَفا جُرُفٍ هارٍ} في قلة الثبات والاستمساك، ووُضِع شفا الجرف في مقابلة التقوى، لأنه جعل مجازا عما ينافي التقوى. (قلتُ – جامعه: فكأن التقوى أرض قوية وأساس متين، في مقابل الباطل والنفاق الذي هو شفا جرف هارٍ؛ فعبر في الأولى بالمشبه، وفي الثانية بالمشبه به، ورشح الاستعارة في روعةٍ من البلاغة للمتأملين).

فإن قلتَ: فما معنى قوله { فَانْهَارَ بِهِ فِي نارِ جَهَنَّمَ}؟

قلتُ: لما جعل الجرف الهائر مجازاً عن الباطل قيل: فانهار به في نار جهنم، على معنى: فطاح به الباطل في نار جهنم، إلا أنه رشح المجاز فجيء بلفظ الانهيار الذي هو للجرف، وليصور أنّ المبطل كأنه أسس بنيانا على شفا جرف من أودية جهنم فانهار به ذلك الجرف فهوى في قعرها.

والشفا: الحَرْف والشفير. وجُرُف الوادي: جانبه الذي يتحفر أصله بالماء وتجرفه السيول فيبقى واهيا. والهار: الهائر وهو المتصدع الذي أشفى على التهدم والسقوط.

ولا ترى أبلغ من هذا الكلام ولا أدلّ على حقيقة الباطل وكنه أمره..[٧١]

---

٧١ قُرئ أَسَّس بنيانه (= مبني للفاعل)، وأُسِّس بنيانه، على البناء للمفعول. وأُسُس بنيانه، جمع أساس على الإضافة، وأساس بنيانه، بالفتح والكسر: جمع أس، وآساس بنيانه على أفعال، جمع أس أيضا. وأس بنيانه.راجع تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (**2/ 311**)

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

{ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ...}

{ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (١٥٩) إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٦٠)} (آل عمران: ١٥٩، ١٦٠)

قال د/ الخطيب في التفسير القرآني:

هذه لفتة خاصة من الله سبحانه إلى رسوله الكريم، وأن الله سبحانه وتعالى قد أودع قلب نبيّه الرّحمة بالمؤمنين، ليكون فيهم الأب الودود الرحيم، يرعى أبناءه، ويسدّد خطاهم، ويتقبل من محسنهم، ويعفو عن مسيئهم.. هكذا النبيّ فى مجتمع المسلمين.. إنه أب لهذه الأسرة الكبيرة، يسعها قلبه الكبير، بعطفه، وحلمه، ومودته..

«لَقَدْ جاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ ما عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ».. على هذا الخلق الكريم صنعه الله وطبعه، وبهذه الرحمة أرسله رحمة وهدى للعالمين.

«فَبِما رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ» الباء هنا للسببية، أي بسبب ما أودع الله فيك من رحمة، كان منك هذا اللّين، وذلك العطف على المؤمنين..

«وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ» وفى هذا كشف للطبيعة البشرية، وأن الناس إنما يألفون من يتألفهم، ويحسن إليهم، ويلقاهم بالصفح

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الجميل.. وعلى غير هذا من كان حادّ الطبع، شرس الخلق، غليظ القلب، لا يقيل عثرة، ولا يغفر زلة.. إنه لن يجد من الناس إلّا المقت والنفور..

وأنه إذا صح لإنسان- وهو غير صحيح- أن يسوّى حسابه مع الناس على هذا الوجه، القائم على الغلظة والشدة، والمنتهى به إلى القطيعة والعزلة- فإنه لا يصح أبدا، ولا يستقيم بحال.. فإن الخيط الذي يمسك به كيان الجماعة ويشدّها إليه، هو ما يفيض عليها من قلبه، من رحمة، وحدب، ولين، ولطف، وإلّا تقطعت بينه وبينها الأسباب، ولو كانوا أبناءه وخاصة أهله!

وفى قوله تعالى:

«فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ» بيان لبعض الأسس التي يقوم عليها منهج التربية، التي يأخذ بها النبيّ جماعة المؤمنين..

وأول هذه الأسس: العفو عن المسيء.. وفى هذا ما يفتح منافذ قلبه ويصفيه من دواعى الحسرة والألم، وينزع منه وساوس السوء والشر..

وثانى هذه الأسس: الاستغفار لهذا المسيء، وطلب الرحمة والمغفرة له من الله.. وهذا إحسان بعد إحسان.. يزيد قلبه صفاء، ونفسه إشراقا، وولاء.

فإذا استوت جماعة المسلمين على تلك الصورة الكريمة، فلم يكن فيها مذموم أو مطرود، ولم ينتظم في عقدها النظيم معطوب أو مقهور- كانت جميعها قلبا واحدا، ومشاعر واحدة، تتحرّى خير الجماعة، وتنشد أمنها وسلامتها، وهنا يجيء ثالث الأسس في مكانه الصحيح: «وَشاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ» فتعطى المشورة ثمرتها الطيبة، التي هى خلاصة ما في القلوب من خير، ومنخول ما في العقول من رأى.. وهنا يتضح الأمر المنظور إليه، ولم يبق إلا انعقاد العزم عليه، وإمضائه على الوجه المرسوم.. وهذا

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ما أمر الله به في قوله تعالى:«فَإِذا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ» الذين يعتمدون عليه، ويفوضون أمرهم إليه، بعد أن يعطوا هذا الأمر كل ما عندهم من رأى وعزم. انتهى.

قلتُ: هذا هو الكيان الذي يجب أن تقوم عليه جماعة الإسلام (الرحمة واللين والعفو والاستغفار للمسلمين والمشاورة والحكمة في اتخاذ القرارات)...

ليس هذا على مستوى القيادة فحسب، بل على أى مستوى من مستويات الدعوة والمعاملة بين المسلمين وإلا كان الخراب والفساد والدمار من حيث ندعي الإصلاح والتقويم...

انتهى ما جمعته في الجزء الأول من كتابي هذا وأسأل الله تعالى أن ينفعني به والمسلمين وأن يجعله في ميزان حسناتي ووالدىَّ.

والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

كتبه الفقير إلى ربه

أبو عمر محمد عبد المعطي محمد

٢٠الأربعاء شوال ١٤٣٦هـ/ ٥ أغسطس ٢٠١٥ م

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

المحتويات

مقدمة ١

«بسم الله الرحمن الرحيم» ٣

{الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم} ٧

{مالك يوم الدين } ٩

" إياك نعبد وإياك نستعين " ١٠

{إهدنا الصراط المستقيم} ١١

{والعصر} ١٥

{ الله نور السموات والأرض} ١٦

{ لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ } ٢٣

{ لكلٍ جعلنا شرعة ومنهاجا} ٢٧

{ولا تنسوا الفضل بينكم} ٢٨

{أرأيت مَن اتخذ إلهه هواه} ٢٩

{ قالوا فيم كنتم} ٣٣

{إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون} ٤١

{ لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم} ٤٢

{ كتب عليكم القصاص} ٤٥

آيات في الجهاد وفروعه في الإسلام ٤٧

لنا شرعة ولنا منهاج ٥٥

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

فطرة الله..... ٥٦
أنواع الْخطاب بِالْقُرْآنِ..... ٥٩
ومن لم يحكم بما أنزل الله..... ٦١
إنا نحن نزلنا الذكر..... ٦٣
قوله تعالى " أقم الصلاة لذكري "..... ٦٦
وان هذا صراطي مستقيما..... ٦٩
تدبر قوله تعالى { وقال الشيطان لما قضى الأمر... الآية}..... ٧٠
{ إن ابراهيم كان أمة...}..... ٧٣
لا يأتيه الباطل..... ٧٥
{ وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت}..... ٧٩
{ يا أيها الناس...} ونظرة موضوعية..... ٨١
{ أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض... الآية}..... ٨٧
«كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ »..... ٩٠
الشيطان والاستعاذة بالله منه في كتاب الله وتأملات..... ٩٦
من صفات أهل النفاق وضعف الإيمان..... ١٠٣
الدعاء الرائع في سورة النمل..... ١٠٥
{أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا}..... ١٠٦
{... وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا... }..... ١٠٩
{ ما ننسخ من آية أو ننسها...}..... ١١٣

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

{ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ...} الآية..... ١٢١

{الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا} .. ١٢٩

بنيان الإسلام..... ١٣٢

{ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ...} ١٣٤